

د. عبد الله حَمَادِي

المورسكيون

ومحاكم التفتيش في الأندلس

1616 - 1492

يدبش از المورسكيون كتاب الله الامم ان ...
 كتاب الله الامم ان ...
 كتاب الله الامم ان ...
 كتاب الله الامم ان ...
 كتاب الله الامم ان ...
 كتاب الله الامم ان ...
 كتاب الله الامم ان ...
 كتاب الله الامم ان ...
 كتاب الله الامم ان ...
 كتاب الله الامم ان ...

د. عَبْدُ اللَّهِ حَمَّادِي

المورسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس

1616 - 1492



المهتدين

المؤسسة الوطنية للكتاب
الجزائر

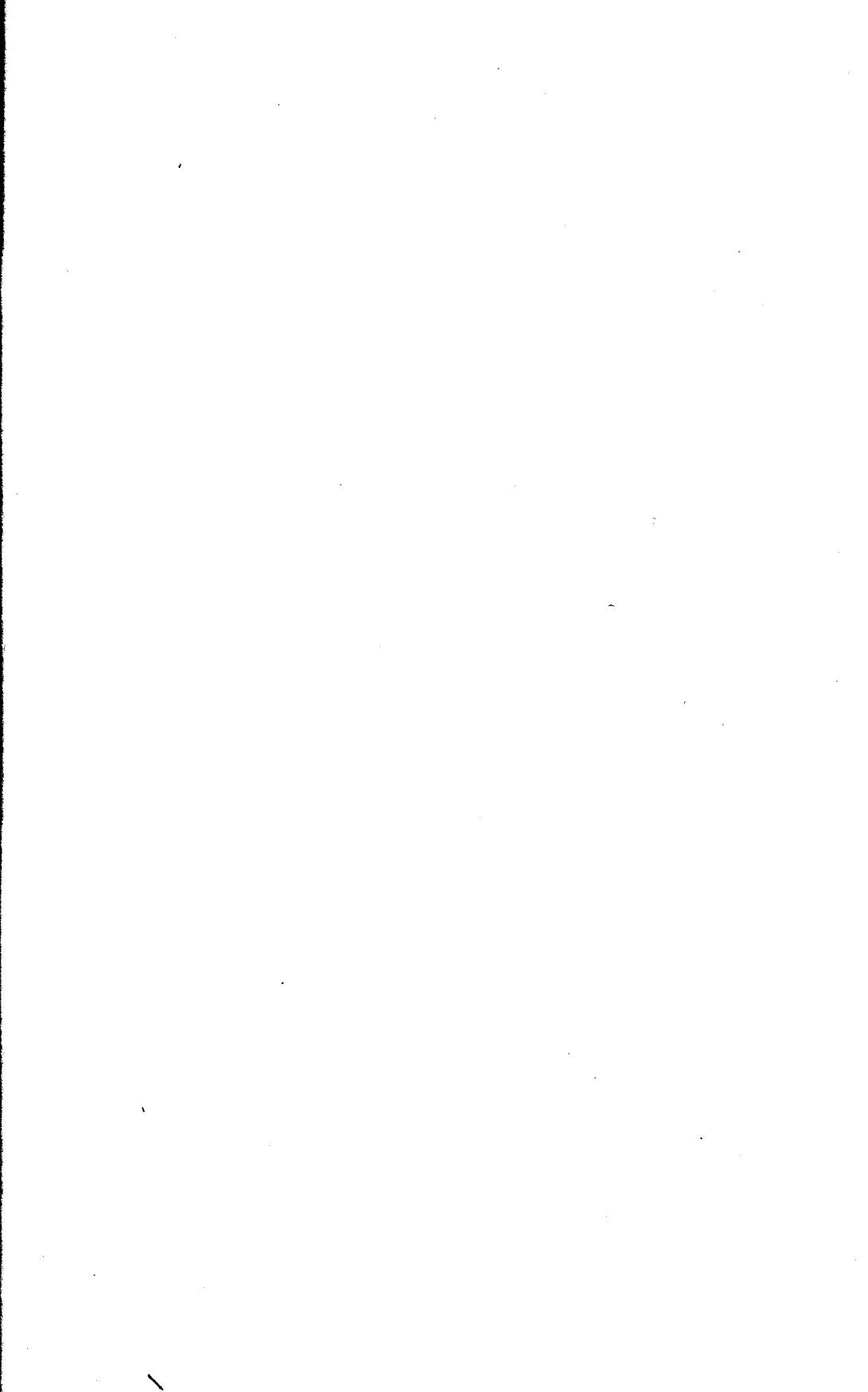
الدار التونسية للنشر
تونس

ISBN 9973 . 12 . 133 . 3 .

جميع الحقوق محفوظة للدار التونسية للنشر
والمؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر -
نوفمبر 1989

الهدوء

إلى المرحوم والدي بو منجل بن إبراهيم بن جابر
بن أحمد بن يوسف حمادي اليوميني...



تمهيد

التركيبية البشرية للمجتمع الأندلسي

في ظل التسامح



لقد أجمع العديد من المؤرخين، ودارسي علم الاجتماع والأجناس على أن الأقلية المورسكية التي بقيت على أرض شبه جزيرة إيبيريا (اسبانيا) بعد تسليم غرناطة عام 1492 م، كانت تشكل شريحة بشرية غير متجانسة مع الاطار العام الذي كان يُسمى آنذاك باسبانيا المسيحية؛ ولقد طُفح عدم التجانس هذا في ظهور أقلية المورسكيين بمظاهر حياتية تتناقض والاطار الاجتماعي الشامل فشكّلت بداخله ما يشبه البحيرة التي تنغلق على أسرارها وتتفاعل عناصرها فيما بينها مستمدة منها حيويتها بفضل تعاضد أفرادها فبرزت خصائصها ناطقة بمراسم دينية إسلامية، وعلاقات اجتماعية تُمارس بلسان عربي بالإضافة الى انتماء الى مخزون حضاري لم يعد لوجوده في الواقع أي إطار يمثله؛ إلا أن هذه الأقلية المورسكية أصرت وتُصير برغم ما يحيط بها من وسائل التضييق والعنف على التمسك بهذه الوشائج الحضارية التي لم تعد تستمد قوتها وفعاليتها من إطار عام وشامل؛ بل صارت تعتمد على مخاض داخلي يتشبث في معظمه بوشائج لا شعورية ممثلة في انتفاء لياض ماضي وتقلص من بساط الواقع، وترك ما ترك من بين فضلاته هذه الأقلية تُواجه مصيرا كُتب عليه الصراع من أجل البقاء أو الأضمحلال.

وقد كان لمشكلة عدم التجانس هذه ما جعل استحالة التعايش والاندماج بين الطائفتين في مختلف أوجه الحياة بما فيها الاجتماعية

والثقافية، هو الأمر الذي شخص التناقض ووسّع هوة التلاقي بين طرفين حُكم عليهما بالتعايش فرضا داخل إطار جغرافي واحد وتحت اختيار سياسي واحد.

إن التجديف ضد تيار الحتمية التاريخية كما هي الحال بالنسبة للمورسكيين كأقلية داخل إطار عام غير متجانس معها جعل مصيرها يوضع على محك التجريب الميداني الأمر الذي دفع بالعديد من الدارسين المتخصصين في تاريخ المورسكيين أمثال : Pascual Boronat و Antonio Dominguez Ortiz و Julio Caro Baroja و Louis Cardaillac وغيرهم، يسعون جاهدين لإماطة اللثام على مثل هذه الثنائية الغربية المثبثة بحقبة تاريخية معينة، قصد استخلاص الموصفات الموضوعية الكافية والدافعة بكلتا الطائفتين المتصارعتين الى الاصرار على التقوقع داخل مقوماتهما الذاتية وعدم السماح بإيجاد لغة مشتركة للحوار والتعاون والتعايش. إلا أن نظريات الدارسين نجدها قد تضاربت وذلك بحسب الدوافع والمشارب مما جعلنا لا نظفر بشبه إجماع يكون شافيا لحدة التساؤلات التي ما تنفك تلح بحضورها كأن تجعلنا نستفهم لماذا أصرّ المورسكيون على عدم المحاولة للاندماج ورفض مبدأ التعايش مع الأكرثية المسيحية المتغلبة؟ أو لماذا أصر الطرف المسيحي الغالب على محاولة إلغاء مقومات الشخصية الحضارية للمورسكيين، وضرب أعزّ ما لديها كالدين واللغة؟ لماذا أصر المورسكيون على التشبث بالأرض التي رفضت وجودهم الحضاري واستبدلتهم بغيرهم؟ لماذا هذا الأمل الغائب الرجاء الذي يسكن الذهنية المورسكية التي كانت تدرك أن الواقع لا يسمح بتحقيق ذلك؟ لماذا هذه المحاولات اليائسة من طرف المورسكيين في خلق مقومات حضارية جديدة كالأسلوب «الالخميا دو» مثلا عسى يضمن لهم الاستمرار برغم أعين محاكم التفتيش اليقظة والمتحفزة لكل طارئ؟ لماذا؟ ولماذا...؟ تساؤلات عديدة لا يمكن الاجابة عنها إلا اذا نحن تتبعنا خيط المأساة الرفيع والطويل. هذه المأساة التي من الجائز أن ننتعها بأنها فريدة من نوعها في المسار التاريخي الطويل والمليء بالمآسي والمظالم للحياة البشرية.

باديء ذي بدء يجدر بنا أن نتتبع بشيء من الوصف الموجز إشكالية عدم التجانس أو التعايش بين الطائفتين المسيحية والاسلامية في هذا المنعرج التاريخي الخطير، وفوق أرض شبه جزيرة إيبيريا التي برهنت قبل هذا الموعد على أنها حققت مثل هذا التقارب والتعايش السلمي الذي تحول الى فرضية مستحيلة بعد ما يقرب من ثمانية قرون من ممارسته على أرضية الواقع.

إن إشكالية التعايش السلمي بين المسلمين والمسيحيين إشكالية قديمة قدم طلائع الفتح المغربي الاسلامي لشبه جزيرة إيبيريا تحت قيادة طارق بن زياد الزناتي عام 711 م.

لقد لفت الأديب أبو الوليد بن نصر نظرنا في كتابه الموسوم بأشهر عائلات فاس الى العناصر الأربعة الكبرى التي تعايشت على أرض الأندلس حسب رأيه وراج محمدا هوية هذه العناصر بترتيب معبر فجعل في مقدمة العناصر الوافدة العنصر البشري الذي ينتمي الى البيت الهاشمي، وقد وفدت عناصره من شبه جزيرة العرب ومن العراق والشام ومصر وافريقيا الشمالية. أما العنصر الثاني بحسب ترتيبه فهو عنصر القبائل العربية ذات الأنساب الشهيرة بالاضافة الى مواليها، أما في الترتيب الثالث فقد ذكر المغاربة وبعثهم بالبرابرة الوافدين من شمال افريقيا في أعدادهم الهائلة. أما الترتيب الرابع فقد خص به الأهالي الأصليين لشبه جزيرة إيبيريا⁽¹⁾. فهذه العناصر الأربعة ظن ابن الأحمر أن المجتمع الأندلسي قد تشكل؛ ونحن بدورنا لا نعارضه على هذا التقسيم بل يحسن بنا أن نضيف اليه بعض التوضيحات حتى يكتمل الاطار فنقول إن الذين خصهم ابن الأحمر بعنصر الأهالي فإنهم كما نعلم كانوا بدورهم خليطا من ثلاثة عناصر أو أجناس أو أكثر، فالتخصصون في هذا الميدان يجمعون على أن سكان شبه جزيرة إيبيريا قبل الفتح كان من بينهم

(1) انظر :

— Dr. don Joaquín Vallvé: libertad y esclavitud en el Califato de Córdoba, pp. 565-566.

— Actas de las II jornadas de Cultura arabe e Islámica (1980) I.H.A.C. Madrid.

عنصر هام هو العنصر الايبيري الذي ينحدر من أصول إفريقية والأقرب الى الظن هي من شمال افريقيا حيث تم وفودها على شبه الجزيرة تباعا بحسب الموجات البشرية المتعاقبة عبر التاريخ وقد استقرت أغلبية هذا العنصر بالمناطق الجنوبية.

أما المناطق الشمالية والوسطى فقد تقاسمتها عناصر كتلك المعروفة بسلالة «الثلتا» المنحدرة من أصل اسكندنافي، والجرمانية التي عرفت بالقوط واللاتينية بشقيها الاغريقي والروماني؛ فهذه العناصر مجتمعة هي التي يشير إليها ابن الأحرر باسم السكان الأصليين وقد كانت ساعة الفتح تشكل العنصر الأكثر كثافة سكانية : ومن هذه القاعدة العريضة الواسعة انبثقت ثلاث مسميات نوجز القول فيها فيما يلي :

1) المولّدون :

وهم أولئك الذين اعتنقوا الاسلام بعد اقتناع وتحوّل معظمهم الى موالي الفاتحين وخاصة منهم البربر وذلك لسبب بسيط مفاده أن المغاربة كانوا يشكلون غالبية الفاتحين وهم كذلك صانعو مهمة الفتح، ويؤيد رأينا هذا المؤرخ ابن القوطية الذي تنحدر جذوره من أحفاد «سارة» القوطية ابنة الملك القوطي Witiza فكان هذا المؤرخ من موالي البربر ولم يكن من موالي العرب. كما تشير بعض المصادر الى التشكيك في نسب العديد من الاسر البارزة والمتبررة والتي كانت لها مكانة أيام الطوائف مثل بني رزين حكام السهلة (البرازين) وكذلك بني الافطس ببطليوس، وبني ذي النون الذين ينحدرون من أصل إغريقي لاتيني هو (زينون) وقد ملكوا كما نعلم جبال كوينكا شمال طليطلة وكذلك طليطلة وكانت بعض المصادر تعرفهم على أنهم من أصل مغربي بربري، إلا أن أحدث الدراسات لا تقر هذه النظرية وترجع أصولهم العرقية الى سلالة المولّدين، ويستحسن في هذا المجال الرجوع الى ما كتبه كل من المستشرق الفرنسي⁽²⁾ Pierre Guichard والمستشرقين الاسبانيين

(2) انظر Pierre Guichard: *Tribus arabes et berbères en Al-Andalus* traducción Española: «Al-Andalus. Estructura antropológica de una sociedad islámica en Occidente» (Barcelona, 1976).

الواسعة لسكان شبه الجزيرة الأيبيرية (3) Bosch Vilà و(4) Joaquim Vallvé. وكما سبق وأن ذكرنا فإن القاعدة العنصر التي دخلت الاسلام فانصهرت مع عناصر أخرى، فمنها من فضل الذوبان فاصطنع لأصوله انسابا جديدة غالبا ما كانت مستوحاة من أسماء القبائل التي انضوا تحتها بالولاء، وبعضهم انسلخ عن أصوله تماما واخترع لنفسه أرومة عرقية جديدة كما فعلت أسرة ابن حزم مثلا والتي كشفت عن خباياها المؤرخ الشهير ابن حيان القرطبي (5). إلا أن بعض العائلات فضلت أن تدخل بعض التحريف على نسبها الأصلي كما فعلت أسرة «Casus» اللاتينية الأصل فأصبحت تُعرف ببني قاسم وكذلك الحال بالنسبة لبني ذي النون (Hijos de Zenón).

(2) المستعربون :

هم الطائفة الذمية التي بقيت على نصرانيتها دون إكراه ولا مساومة فأصبح هؤلاء يتمتعون بحقوق ويقدمون واجبات مما حوّل لهم أن يعرفوا إما بالمسالمة أو المعاهدين أو كما تسميهم المصادر اللاتينية بـ «Mozarabes» أي المستعربين، وكان لهذه الطائفة أن ترضى بالأمر الواقع وتعمل على تنفيذ مبدأ التعايش أو الاندماج الأمر الذي سمح لها بأن لا تتخلف عن ادارة شؤون الخلافة فكان عبد الرحمن الناصر الخليفة مثلا يضمّ في حرسه الشرفي فرقة من المستعربين المسيحيين حتى أصبحت هذه الطائفة تتمتع بحرية الرأي والقرار المتعلقة بشؤونها الدينية كما كانت تتمتع حقا باستقلالها الذاتي الذي ضمن لها حرية العبود وحرية التقاليد، وحرية المعاملة والتعايش الآمن داخل إطار عام مكيف يجو من التسامح الذي لا يكره ولا يجادل فيه إلا بالتي هي أحسن. وكانت معاهدات حكام المسلمين مع أهل الذمة بمثابة المواثيق السماوية حيث لا يجروّ أحدهم مهما بلغت سطوته على انتهاكها أو

(3) انظر Jacinto Bosch vilà : El elemento Humano Norteafricano en la Historia de la España Musulmana (separata de la Revista), «cuadernos» de la Biblioteca Española de Tetuán», Novembre 1964, N° 2 pp. 17-37.

(4) انظر Dr J.Vallvé: Libertad y Esclavitud... pp. 568-569

(5) انظر : ياقوت الحموي : معجم الأديباء... المجلد 12 ابتداء من ص 235.

تحريفها، وظل حال المستعربين على أحسن ما يرام الى أن عشت بعض العناصر منهم بالثقة المتزايدة، وبدافع ديني حاقده على انتهاك حدود الجوار والتعايش، فراح بعضهم يحرق الاعراف ويعلن عصيانه ويلقى بنفسه الى التهلكة حتى يضمن لنفسه مرتبة المجاهدة والتضحية وزاد الحد ببعض المغرضين أن أثروا في ذوي العقائد الضعيفة من المولدين فلم يتردد بعضهم من إظهار رذته كما حصل مع المنتزي المشهور عمر بن حصفون⁽⁶⁾، أو مروان الجليقي أو الرياحي المعروف بأرذبلش، أو بني صافاريكو، وبني آنجليئو بناحية إشبيلية إلا أن هذه الثورات التي تراوحت حدتها، ما انفكت أن عرفت تراجعاً وانكساراً أعاد مياه التعايش والأمن الى مجاريها الطبيعية.

(3) الشعوبيون

بعد انكسار محاولات التمرد المسلحة لجأ بعض المستفيدين من معاهدة السلم والتسامح الى التعريض بالعنصر العربي على وجه الخصوص، ومما تجدر الإشارة إليه أن شعوبية أهل الأندلس لم تتجاوز حدود اللياقة حيث ظلت بعيدة عن التعريض بأمر الدين والمعتقد، بل كان وازعها هو الصراع السياسي من أجل التفوق في ميدان الحياة والفوز بمنصب القرار والقيادة لهذا تراءت ظاهرة الشعوبية متواضعة في الأندلس اذا قيست بما عرفته بالشرق العربي الاسلامي؛ إن شعوبية بعض المولدين يعود الفضل في اكتشافها الى مجهودات المستشرق الألماني الشهير قولدزهر في كتابه :

«Die Su'abijja unter den Muhammedanern in Spanien.

Z.D.M.G. 1898» .

(6) عن ابن حفصون التمرد انظر :

— Una crónica anónima de 'Abd al-Rahmān III al-Nāṣir : Editada y por E. Lévi - Provençal y Emilio Garcia Gómez, Madrid, Granada 1950, pp. 37...

— وانظر كذلك : المقتبس : لابن حيان، ج 5، تحقيق بيدرو شالميتا، نشر المعهد الاسباني العربي، مدريد 1983، ص 27.

— وانظر كذلك : Dr. Pedro Chalmeta : Precisiones acerca de 'Umar B. Hafsūn, pp. 163 - 175.

— Actas de las jornadas de cultura arabe e Islámica (1980) I.H.A.C., Madrid 1980.

الذي وردت فيه إشارة هامة تثير الانتباه حول رسالة أدبية من تأليف أبي عامر بن غرسية وهو اسباني مولد ومن أصل مسيحي، وقد اعترف هو نفسه بذلك في رسالته؛ وتمثل رسالة ابن غرسية هذه والتي خاطب بها أبا عبد الله بن الخدّاد يعاتبه فيها ويفضل العجم. ومما ورد في هذه الرسالة قول ابن غرسية الذي يبدو أنه كان من أئمة البيان العربي إذ يخاطب ابن الخدّاد بقوله : «أأحسبك أزريت، وبهذا الجليل البجيل ازدرت ومادرت أنهم الصهب الشهب. ليسوا بعرب ذوي أينق جرب، أساوره أكاسرة مُجدُّ نُجدُّ بهم، لا رُعاة شويها ولا بهم، شغلوا بالماذي والمُرّان عن رعي البعران ويجلب العز عن حلب المعز، جبابرة قياصرة...» إلى آخر الشتم التقليدي المعروف عند طائفة الشعوبية بالمشرق، وقد ظهرت رسالة ابن غرسية إبان حكم مجاهد العامري الصقلي لدانية، والمتوفى سنة 436 هـ / 1044 م. لكن هذه الروح الشعوبية لا تعتبر رسالة ابن غرسية هي أولى ثمراتها بل يشير المستشرق الألماني قولدزهر الى ما أورده ابن الأبار من إشارة هامة تقول : «أن أحد الصقالبة واسمه حبيب ويتصف بالفهم والتيقظ، ألف زمن هشام الثاني كتابا تعصب فيه لقومه وعنوانه : «الاستظهار والمُغالبة على من أنكر فضل الصقالبة» وقد ذكر ابن بسّام في ذخيرته أنه اطلع على هذا الكتاب وأنه يحتوي على جملة من الأشعار ونوادير أخبارهم»⁽⁷⁾، وهذا ما دفع بالمستشرق الألماني قولدزهر الى اعتبار هذا الكتاب البداية الأدبية الأولى نحو الشعوبية في اسبانيا. وقد تجرأت طائفة الشعوبية هذه، في ظل الحكم الاسلامي بالأندلس الى التغلغل في أعماق صفوف المجتمع وتوصيل صوتها، بل المساهمة في لعب أدوار جدّ خطيرة في سقوط الخلافة، بمشاركة نشيطة على صعيد البلاط، وكان من ثمار مجهوداتهم السياسية اقتطاع بعض أطراف الخلافة على أعقاب الفتنة الكبرى التي

(7) انظر : د. أحمد مختار عبد الفتاح العبادي : الصقالبة في اسبانيا، لحة عن أصلهم ونشأتهم وعلاقتهم بحركة الشعوبية. نشر وزارة المعارف العمومية، المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمديريد 1953، ص : 7 - 42.

عصفت بوحدة الأمة الاسلامية وأفرزت على أعقاب نكستها فصائل مُتناحرة عرفت بممالك الطوائف، ومما يؤكد نفوذ هذه الطائفة المغرضة تلك الدهشة التي تأوّه بها البلّوي بعد قرنين، من جراء سكوت رجال ذلك العصر عن إساءات الشعوبية وعلى رأسها «الفاسق الزنديق ابن غرسية»⁽⁸⁾ فيقول «والعجب من أهل ذلك الزمن كيف استقروا على هذه الفتن وأقروا هذا المجترى على هذا الاجترأ، وما جاء به من الافتراء، أم كيف أبلعوه ريقه وأوسعوا له طريقه ولم يهلكوا فريقه» فعلا، إن ما أقدم عليه الشعوبيون من تجاوز لا يمكن فهمه إلا إذا نحن وضعنا مُجريات الأحداث داخل إطارها الزمني والمكاني، لقد كان كل ذلك وغيره جائزا، جائزا تحت راية التسامح التي رفرت على رُبع الأندلس ووسعت أرجاؤها أبعد ممّا استوقفنا عند هذه الطائفة. فمجال التلاقي والتعايش وسّع برحمته طوائف أخرى من واجب المقام تجعلنا نقول في حقها بضع كلمات.

(4) الصقالبة

إذا كان المجتمع الأندلسي قد وسعت أرجاؤه مختلف الطوائف التي سبق ذكرها فإننا نجد لا ينفلق في وجه مجموعة من الوافدين من مناطق مختلفة كشرقي ألمانيا وإيطاليا وفرنسا، وكل المناطق الممتدة من بحر قزوين الى البحر الادرياتي؛ وقد عُرفت هذه الطائفة بأسماء عدّة فقد أطلق عليها كل من ابن حيّان وابن بسّام مثلا اسم المجاييب. ونعتهم ابن عذارى باسم العُلوج، وأشار اليهم المقرئ بتسمية الخُرس. إلا أن هذه الطائفة قد عُرفت هي الأخرى بتسمية أكثر شيوعا هي «الصقالبة» «وهي التسمية التي أطلقها الجغرافيون العرب في العصور الوسطى على الشعوب السلافية عامّة»، لأن بعض الجرمان والسكندوايين دأبوا على سبي تلك الشعوب السلافية وبيع رجالها ونسائها الى عرب إسبانيا، ولذا أطلق

— عن ابن غرسية انظر العبادي : رسالة خاطب بها أبو عامر بن غرسية أبا عبد الله ابن الحداد يعاتبه فيها ويفضل العجم على العرب ابتداء من ص 21 — المصدر السابق الذكر..

العرب عليهم اسم الصقالبة» (8). كما عرفوا أيضا فيما بعد، وهذا في بلاط الخلفاء باسم الفتیان. أما كيفية وصول هذا الجنس الى اسبانيا فهذا ما فصل فيه القول المؤرخ الشهير آدم ميمز إذ جعل لليهود الدور الأساسي في تنشيط تجارة الرقيق بما فيهم الصقالبة، وقد عمد تجار النخاسة من اليهود الى خصي هذه البضاعة مما جعلها تلقى رواجاً واستقبالا في بلاطات الخلفاء، وما زاد في الاقبال عليها كون وصول هذه الطائفة في أغلبها أطفالا من الجنسين، ولم يستخدموا في المهن الحقيرة بل سرعان ما علا شأنهم نتيجة التربية الممتازة التي تلقوها مما أهّلهم لاعتلاء مناصب جدّ خطيرة في الدولة، وعلى وجه الخصوص الحراسة الشرفية وقيادة الجيش والعمل كحاشية مقرية، فتقول المراجع إن عدد هؤلاء ما انفك يتزايد الى أن بلغ على عهد عبد الرحمن الناصر (13750) خمسين وسبعمائة وثلاثة عشر ألفا من الرجال و6350 من النساء؛ وظل عدد الصقالبة في تزايد مستمر حتى عمد عبد الرحمن الناصر مثلا الى تشكيل قوة منهم للحدّ من نفوذ العناصر القوية في المجتمع الأندلسي كالعرب والمغاربة، الأمر الذي دفع به الى تقليد بعضهم مهاما جدّ خطيرة كقيادة الجيوش والسير بها تحت إمرة «نجدة» الفتى الصقلبي، لمواجهة إحدى الحملات النصرانية، لكن مثل هذا الصنيع قد ترك ما ترك من الآثار الوخيمة. أما في الميادين الأخرى فإننا نجد الصقالبة يبرزون في الحياة الفكرية وذلك بحكم نشأتهم وتربيتهم تربية أرستقراطية فصار من بينهم الأدباء اللامعون والشعراء المبرّزون وكما لا يخفى علينا ذلك الدور الخطير الذي لعبه أيام الفتنة الكبرى التي عصفت بقرطبة وبالخلافة فانهم كغيرهم لم يتخلفوا عن اقتطاع نصيبهم من جسد الخلافة المنهوب فكان من نصيبهم مثلا إمارة دانية التي استقل بها القائد الصقلبي المشهور مُجاهد العامري... وفي ظل هذه الامارات — كما سبق وأن اشرنا — ازدهرت حركة الشعوبية وبرزت بروزا واضحا مكّنها من توصيل صوتها الى مختلف المنتدات الفكرية والأدبية وكل ذلك طبعا

(8) انظر : العبادي : الصقالبة، ص 8 — 9.

كان نتيجة التسامح الذي هيأ مناخ التلاقي والتلاقح، فجاء المجتمع الأندلسي فريداً من حيث غزارة النتاجات الفكرية، وساخناً من حيث الصراعات السياسية، ومُتسعا لكل الرغبات المكبوتة، ولم ير من حرج يذكر إذا عُين على رأس إدارة مكتبة الحكم المستنصر الشهيرة أديب صقلبي هو «تليد الحُصبي» مثلاً، وكل ذلك بفضل مبدأ التسامح الذي وسعت رحمته كل الأجناس بمختلف مشاربها وأطماعها.

(5) اليهود

لقد اتسعت الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس بفضل تسامح ورحابة صدر الإسلام — كما سبق وأن ذكرنا — إلى أهل الكتاب من الذميين ويأتي في طليعة هذه الطوائف اليهود الذين يشهد التاريخ الحضاري للأندلس أنهم لم يعرفوا فترة في تاريخهم الطويل أزهى ولا أخصب في جميع النواحي وعلى وجه الخصوص الثقافية منها إلا في ظل السيادة العربية الإسلامية بأرض الأندلس، ولعل ما يلفت انتباه الدارس المحقق لمجريات أحداث تاريخ الأندلس من أن يجد أن فئة اليهود هي من بين الفئات التي حظيت بثقة العرب المسلمين وهم يطأون أرض الأندلس بطلائعهم الأولى تحت قيادة طارق بن زياد الزناتي حيث حفظ لنا كتاب «أخبار مجموعة» لمؤلف مجهول يعد ما تركه اليوم من أعرق المصادر وأوثقها صلة بمجريات الفتح للأندلس، هذا النص المتضمن لهذه الشهادة التاريخية البالغة الأهمية من حيث البعد الحضاري والتي تُعبر على أكثر من مغزى يسجل في رصيد الحضارة العربية الإسلامية وذلك في حق اليهود حيث يقول صاحب الأخبار وهو بصدد الحديث عن اجتياح طارق وجنوده جنوب الأندلس في طريقهم إلى عاصمة القوط طليطلة آنذاك.. فلما بلغوا مدينة إلبيرة (Elvira) وهي المدينة التي احتلت شهرتها وريبتها فيما بعد غرناطة «فحصروا مدينتها فافتتحت فالفؤا بها يومئذ يهودا، وكانوا إذا الفؤا اليهود ببلدة ضمؤهم إلى مدينة البلد وتركوا معهم من المسلمين طائفة.

ومضى عظم الناس ففعلوا ذلك بغرناطة، بمدينة إلبيرة، ولم يفعلوا ذلك بمالقة، مدينة رية، لأنهم لم يجدوا بها يهودا» (9).

فما يلاحظ من هذا النص القديم والهام أن المسلمين وضعوا ثقبتهم في اليهود منذ أولى تحركاتهم وذلك لأسباب تاريخية عديدة يعرف اليهود أو المتعاطفون معهم من الدارسين اليوم جلها إن لم يكن كلها. وإذا كان هناك من أمة لم تتعرض الى اليهود بالقمع والاضطهاد في التاريخ فهي الأمة الاسلامية. لذلك كان طبيعيا أن يحظى اليهود بين ظهرانيتهم بمثل هذه الثقة المبكرة وهو ما ضمن لهم الاستقرار والرفاهية والرفق العلمي الذي أفرز ما يشبه المساهمة الحضارية لليهود في ظل الحكم الاسلامي في الأندلس، ولعل نظرة خاطفة لمسار أحداث التاريخ تبين لنا أهم الأدوار الحساسة التي كان لهم شرف الاضطلاع بها ودائما من منطلق مبدأ الثقة الأولى التي سنها الأسلاف ليكرسها خلفهم على أرض الواقع؛ فتؤكد البحوث القديمة والمعاصرة أن طوائف اليهود كانت متواجدة في معظم المدن الأندلسية وكان هذا التواجد ممثلا في الطقوس والشعائر الدينية التي كانوا يمارسونها بحرية مطلقة في بيعاتهم المتعددة، كما كانت حرية اختيارهم للحارات التي هي جزء من نظام معيشتهم المنغلقة هو الطابع السائد في عمارة اليهود وأصبحت مثل هذه التجمعات تعرف في اللغة الاسبانية باسم الجودرية (Juderia) وهي نسبة مشتقة من التسمية نفسها، والتي يسميها العرب «بحارة اليهود» وهي من الأحياء الهامة التي أصبحت تشكل جزءا مكتملا للهم المعماري في تصميم المدينة الاسلامية؛ فحارة اليهود بطليطلة وقرطبة وغرناطة مثلا هي أشهر من نار على علم كما يقال. وبالإضافة الى ذلك فان مشاركتهم وتأثيرهم في الجو السياسي لم يخف على الدارسين وخاصة في مدن معروفة كغرناطة ورندة ولسانة اللاتي كن يعرفن بصفات دالة؛ كغرناطة اليهود، ورندة اليهود ولسانة اليهود نظرا للدور البارز لليهود في هذه المدن.

(9) انظر : مؤلف مجهول : أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بها بينهم، تحقيق ابراهيم الأياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1981، ص 22.

أما أهم النشاطات التي كانت تمارسها هذه الطائفة فإنها تتمحور على وجه الخصوص في التجارة بمختلف أنواعها، وباحتراف مهن كالطب والترجمات وقد برزت عدة شخصيات يهودية كان لها دور خطير في مصير السياسة بالأندلس إبان العديد من الحقب؛ فهذا حاشدائي ابن شبرون في القرن العاشر الميلادي يحظى بمنصب وزير في الخلافة الأموية بالإضافة الى كونه طبيب الخليفة الخاص وكذلك أمين الخزانة وسفيراً مفوضاً في مفاوضات عبد الرحمن الناصر — الثالث — مع رؤساء الممالك الأخرى، أما في القرن الحادي عشر الميلادي فقد برز في إمارة التُّخوم العليا بسرْقُسطة أبو الفضل بن حاشدائي كوزير واكب ثلاثة أمراء من بني ذي النون حيث كان بيده الحل والربط. أما في غرناطة الزيرية أين اتضح بشكل سافر نفوذ اليهود في الامارة الصنهاجية وأصبح يخطط لمصير عاصمتها غرناطة الاقتصادي والسياسي، ويكفي للتذكير هنا بقصيدة أبو اسحاق الألبيري التي جاءت كرد فعل طبيعي على ما توصلت اليه هذه الهيمنة التي لم تعد خافية على ذي بال؛ فقد استولت كما هو معروف عائلة بني التغرلة اليهودية على كل شيء⁽¹⁰⁾، والسبب في ذلك — كما يروم بعض المستشرقين المغرضين تسويغته — يعود الى عدم ثقة زاوي بن زيري الصنهاجي في الجنس العربي، وعدم وجود كفاءات من عُصيته نظراً لجهالتهم وتخلفهم الحضاري الأمر الذي حثَّ عليه اللجوء الى اليهود ليضطلعوا له بمهام المملكة وهو تخرّيج وإه ومغرض من طرف هؤلاء الدارسين لأن ما ذكر من قبل على سبيل المثال يُفندُ مثل هذه المزاعم، فحظ اليهود من المشاركة كان مرجعه الى تواصل مفعول الثقة الأولى التي رسخها التسامح الاسلامي... وقد لعبت كما هو معروف عائلة بني التغرلة دوراً أغضب المسلمين كافة وذلك نتيجة التناول والطفغان وهو ما دفع بالشاعر أبو اسحاق الألبيري الزاهد الى التصدي الى غطرسة هذه العائلة التي بلغ تجرُّها أن سمحت لنفسها

(10) والى هذا يشير شاعر المعتمد : ابن عمار حين قال :

شقيت بسيفك أمة لم تعتمد إلا اليهود وان سمّت بربراً
(ابن دحية، ص 171)

بالطعن في صميم الدين الاسلامي على لسان الوزير يوسف بن النغلة؛ وإن كان هذا التصدي التاريخي الذي أعطاه أهمية عميد المستشرقين اميليو غارسيا غومس في دراسته وتحقيقه المعروف لقصيدة الشاعر والتي يرى فيها موقفا معاديا للسامية وهو تخريج يدخل ضمن منظور عدائي صريح للحضارة العربية الاسلامية الذي دأب المستشرقون عامة على ترسيخه، وذلك بالتركيز المفرط على التصنيفات العرقية والحرس الدائم في دراساتهم على نعتها بنعوت تتنافى والقيم الاسلامية التي أذابت الشيع والأجناس في بوتقة وحدانية الاسلام.

لكن الوقائع التاريخية تذكر لنا أنه على إثر وفاة الوزير اليهودي الأب اسماعيل نجيب بن النغلة عام 1057 م خلفه ابنه يوسف الذي استطاع أن يحظى بثقة مطلقة من طرف باديس بن حبّوس الزيري خوّل له نفى الشاعر الألبيري وتأليف كتابه المشهور الذي ردّ عليه ابن حزم (11).. وقد كان لعملية النفي ما حفّز الشاعر على تأليب الأمة الاسلامية الغافلة على الوزير وذلك بقصيدة تاريخية عام 1066 م أودت بحياة الوزير اليهودي وبالتنكيل بثلاثة آلاف يهودي في ليلة واحدة كما تؤكد المصادر وهو ما ترك الدارسين من المستشرقين يقفون مبهوتين أمام قدرة مفعول الشعر في بيئة عهدوا الشعر فيها مجرد نزوة لوصف معشوق أو خمر أو روضة أما أن يتحوّل الى سلاح قاتل ويفتح بابا على مصراعيه لتوعية الناس وحملهم على وضع حد للطاغوت فهذا ما أربك الدارسين وأوقعهم في التساؤل. ويأتي على رأس المتساؤلين بشدة غارسيا غومس في كتابه المنشور عام 1940 بغرناطة والذي خصص به الألبيري وقصيدته.

فهذه بعض العينات، لكن تبقى الحضارة الأندلسية المرتع الخصب للشئات من الأقليات اليهودية التي استطاعت أن تنمّي مخزونها القومي بشخصيات تاريخية بقامة الفيلسوف الميموني مثلا، أو شمويل بن تبون، ويهوذا بن سليمان كوهين (1247 م) وهو من مدينة طليطلة، وشم

(11) انظر : ابن حزم الأندلسي : الردّ على ابن النغلة اليهودي ورسائل أخرى. تحقيق د. إحسان عباس، دار العروبة، القاهرة 1960، ص : 7 - 17.

طوب بن يوسف بن فلغري وقد شرح ليون بن جرشون كتب ابن
رشد(12)، أو شعراء كبار كابن سهل الاسرائيلي وغيرهم.

ويكفي اليهود فخرا أن اندماجهم في الوسط الاجتماعي الاسلامي
مكنهم فضيلة أصبحت الدراسات الاستشراقية تلهج بها ألا وهي إبرازهم
كحليف مشارك في بناء صرح الحضارة الأندلسية وإن كانت مثل هذه
الاستنتاجات تعدُّ من صميم الطعن في الحضارة العربية الاسلامية إلا
أنها تبقى مع ذلك شهادة دالة ودامغة لتردد على الجاحدين بأنه إذا كان
هناك من فضل لليهود يذكر فمرده الى الروح الاسلامية المتسامحة التي
فسحت لهم مجال العبادة والعمل في جو محصن بالجهاد والاجتهاد لم
يتوفر لهم مثله عبر التاريخ لا في المشرق ولا في المغرب.

(12) انظر : محمد المتوني : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، تطوان، المغرب
1950، ص 101.

الفصل الأول

- ~ الموركيون بين الذكوة والواقع
- ~ محاولات الذجين الفاشلة
- ~ حظر اللغة العربية والمؤلفات الموركية من قبل محاكم التفتيش .
- ~ مشابعات محاكم التفتيش للمخالفين
- ~ امعان السلطات الكنسية في مصادرة اللغة العربية



المهتدين



المورسكيون بين الذاكرة والواقع

بمثل هذه الخلفية المشرقة كان يحلم الفرد المورسكي، وكان في اعتقاد هذه الأقلية المغلوبة أنه بإمكانها أن تتعايش كما حدث من قبل وإن تغيرت موازين القوى. لكن واقع الحال كان يخفى لهم عكس هذه التصورات المعسولة والتي تضمنتها لهم الموائيق التي تمت بين الطائفتين على إثر توقيع معاهدة غرناطة الشهيرة⁽¹⁾ لكن واقع هذه المعاهدة ما انفك يتلاشى أمام أمل المورسكيين ليفسح أمامهم مجالاً للتصادم والطموحات الجارحة التي يغذيها الحقد الصليبي العلني حيث لم ينفع كل ما بُذل من جهد واجتهاد في سبيل خلق المجتمع المثالي العادل الذي يفرض على الجميع الانصياع الى العدالة واحترام حق الجوار وواجبات التعايش.

لقد أصيبت طائفة المورسكيين بالذهول أمام الواقع الجديد خاصة وأنها الطائفة القليلة من حيث العدة والعدد، وإذا أردنا أن نبحث في كيان شخصيتها أو إنيتها فانها عبارة عن بقايا شتات لثمانية قرون من الاندماج الكلي فالنسبة المائوية من الدم العربي الافريقي عند أسلافهم وعندهم هي في أقصى تقدير أدنى النسب إن لم نحزم بعدم وجودها

(1) انظر نص المعاهدة : المقرئ : نفع الطيب، ج 6 ص 281..
— د. اسعد حُومد : محنة العرب في الأندلس، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1980، ص 98 — 102.

— عبد الله عنان — نهاية الأندلس، ص 230.

كلية، إنهم مواطنون من طراز جديد، إنهم أندلسيون لا غير...

من هذا المنطلق فإننا نجد طائفة المورسكيين تُبدي شعورها وانتاءها الى الأرض التي يعيش أفرادها فوقها أكثر من انتائهم الى أي واقع آخر، إنهم حصيلة عصور طويلة أوجدتهم هناك فأصبح شعورهم بالمواطنة تجاه الأرض أكثر من شعورهم بأي انتاء آخر ولذا فإن محاولة إبعادهم منها تعني ببساطة محاولة اجتثاث لجذورهم من تربة واقع أوجدتهم، كما تعني محاولة إبادة لأنه لا خيار أمامهم سوى التشبث بما ورثوه وما بناه سالفهم وعاقبهم.

وهناك أيضا من المفارقات الواضحة بين الفاتحين المسلمين للأندلس والاسترداديين من النصارى الاسبان ما يعتبر نقاطا جوهرية من حيث المضمون الفعلي المسجل على أرض الواقع، فالمسلمون بفضل التسامح استطاعوا التغلغل في قلوب المستعربين مثلا الى درجة جعلت تعاليم الفاتحين المسلمين تغزو العقول والقلوب قبل غزو الأبدان ولا أدل على ما نقول من شهادات العديد من حراس الكنيسة من أساقفة تقرر في مجملها بمدى مفعول التسامح على بقية الذميين ممن فضلوا العيش في كنف المجتمع الاسلامي يؤدون ما عليهم من واجبات ويحجون ما يستحقونه من حقوق في ظل عدالة اجتماعية سامية لا تتعارض قيد شعرة مع تعاليم الدين الاسلامي، الحنيف وربما قبل مواصلة الحديث في هذا المجال الهام يجدر بنا أن نذكر ولو بحادثة واحدة فيها الدليل الكافي على ما نقول؛ تذكر المصادر التاريخية انه «لما دخل الأمير عبد الرحمن بن معاوية (الأول) الى الأندلس واستولى على إمارتها وسكن دار سلطانها قرطبة، فنظر في أمر الجامع وذهب الى توسيعه وإتقان بنيانه، فأحضر أعظم النصارى وسألهم بيع ما بقي بأيديهم من كنائسهم لصق الجامع ليدخله فيه وأوسع لهم البذل وفاء بالعهد الذي صولحوا عليه فأبوا من بيع ما بأيديهم وسألوا أن يباحوا ببناء كنائسهم التي هدمت عليهم بخارج المدينة على أن يتخلوا للمسلمين عن هذا الشطر الذي طولبوا به. فتم

الأمر على ذلك سنة 168 هـ»(2). مثل هذه المواقف المتساهلة لا تُحصى بعد، وقيمتها الحضارية الكبرى تكمن في كونها كانت مصداقا لدعوة الحق التي جاء بها الدين، وتكمن أيضا في كونها كانت مرفوقة بالقوة والغلبة التي كان من الممكن أن تخوّل للمسلمين إحلال العنف والقهر محلّ التسامح، وبالتالي هي أحسن. لذا تمكنت القيم الإسلامية من طائفة المولدين ومن طائفة كبيرة من المستعربين وغيرهما من الطوائف الأخرى دون حاجة المسلمين المتغلبين الى استعمال وسائل الاكراه والقهر فاستطاعت بهذه الروح السمحة أن تعرف أرضهم تعايش ثلاث ديانات لم تتمكن الى حدّ الساعة أي قارة على وجه الأرض أن تعيد مثل ذلك الانسجام والتآخي وهذا بشهادة أكثر من باحث مُستشرق. وبهذه الخلال تمكنت القيم الإسلامية من احتواء الرعايا الذميين وفسح معها المجال الى اللغة والثقافة العربية كي تفعل مفعولها في تكوين الشخصية الحضارية الجديدة فكانت إسهامات الجميع جدّ معتبرة في هذه الميادين العلمية والأدبية والتي ولّدت لدى جميع السكان الشعور بوحدة المصير والمُواطنة.

أما في المقابل فإننا نجد الزحف المسيحي الاستردادي لا يملك تقريبا شيئا من الرصيد الانساني الذي كان سائدا في المجتمع الأندلسي الاسلامي، بل ما طبع هذا الزحف هو سِمة الاجتياح السريع غير المتأني الذي لا يسمح بخلق مناخ للتعايش أو تحكيم العدالة الاجتماعية ولا أدل على ما نقول من هذه الشهادة الواردة في «حواليات الملك دون فرناندو الرابع» والتي يذكرها المؤرخ الاسباني الكبير كلاوديو سانتشيت البرنوث (Claudio Sanchez Albornoz) في كتابه «إسبانيا الإسلامية» حيث يذكر قصة المسلم المرحّل — بفتح الحاء — باستمرار فيقول هذا المسلم المطارد من الزحف الاستردادي المسيحي مخاطبا الملك دون فرناندو الذي زحف للاستيلاء على جبل طارق في القرن الثالث عشر

(2) سيمون حائك : صُبح البشكنسية أو الأندلس على عهد الحكم المستمر والدولة العامرية، نشر مطابع الكريم الحديثة، بيروت 1976، ص 18.

الميلادي» قال له أحد المسلمين الذين يعيشون بتلك الناحية والذي كان شيخاً مُسناً : سيدي الملك، ماذا فعلت أنا حتى تطردني من هنا؟ فقد كان جدّ جدّك الملك دُون فرناندو الرابع حين استولى على اشبيلية قد طردني منها فتوجهت لأعيش بِشَرِيش وبعدها الملك الفونسو جدّك حين استولى عليها طردني فتوجهت لأعيش بجزيرة طريف وظننت أنها مكاناً آمناً الى أن زحف والدك الملك سانتشو (Sancho) فاستولى على جزيرة طريف فطردني وها أنا أعيش الآن بجبل طارق وهو آخر معقل ليس في وسعي أن أتجاوزه لأنك تعلم أن أرض الاسلام تبقى وراء البحر... فأين يمكنني أن أذهب...؟!»⁽³⁾، فقصة المرّحل هذه دليل كافٍ على عدم التسامح الذي طبع الزحف المسيحي الاستردادي حيث كان متسرعاً في محاولة إلغائه للطرف المعادي، وإذا اقتضت الضرورة استعمل وسائل الدمار والابادة كما حدث في القرن الثالث عشر ببلنسية في واقعة ابن الجحّاف وبقية المسلمين⁽⁴⁾. فقد فتح المسيحيون بهذه المعاملة روح العداوة والتباعد الدائم بين الطائفتين الأمر الذي حتمّ على طائفة المورسكيين أن يتقوقعوا على أنفسهم وأن يتشبهوا أكثر فأكثر ببقايا قيمهم الروحية والحضارية وسط هذا المعتكك الصاحب بالعداوة الذي لا يرحم؛ من هناك كان السر في عدم قبول مبدأ الاندماج والذوبان من طرف المورسكيين وتفضيلهم لأسلوب المقاومة ولو بالاصرار على إظهار المبادئ كمظهر من مظاهر رفض الاندماج وعدم القبول بذوبان شخصيتهم التي يرون فيها أحق وأجدى بأن تتمسك بتلك الأرض التي تحولت الى ميدان صراع بعدما كانت ميدان تعايش وعدالة.

أما بالنسبة للنصارى الاسترداديين المتغلبين فإن القضية لم تقف بالنسبة لهم عند حدّ ضمان استتباب الأمن، وإزالة الخطر المحدق، بل تجاوز بهم حدّ الجموح الى خلق جو من عدم الثقة بين كل ما هو غير

(3) انظر Claudio Sanchez Albornoz : *La España Musulmana*. (Según los autores islamistas y cristianos medievales) 2ª ed., 2 tomes, Ed. Buenos Aires (Argentina), 1960, pp. 394 - 395.

Ramón Menendez Pidal : *La España del Cid*

(4) انظر

نصراني، وقد انصبت تشككاتهم حتى على أولئك الذين قبلوا بشرط التنصير سواء من المسلمين أو اليهود؛ وعدم الثقة والتشكك هذه نجدها لا تقل خطورة في مستواها عما يكتنونه لأولئك المورسكيين المتمسكين بمقومات شخصيتهم فأصبحت ظاهرة النصرانية في حدود المملكة الاسبانية المسيحية هي قضية نسب يشترط فيه أن يُتوارث، وأصبحت مقولة شهيرة متداولة في الأوساط المسيحية المتعصبة «إن مسلما مرتدا الى النصرانية، يعتبر في حقيقة الأمر مسيحي غير نصراني بالفطرة» أي أنه أكثر خطورة مما كان عليه في الأصل. وقد أشار المؤرخ الفرنسي بييار فيلار Pierre Vilar في كتابه «تاريخ إسبانيا» الصادر بباريس عام 1958 الى هذه الفوارق الجوهرية بين الطائفتين في قوله «إن المورسكيين يشكلون أقلية وطنية»⁽⁵⁾ وخاصة في مقاطعة تاج أراغون أو تاج قشتالة (Castilla)، ويشكلون أقلية اجتماعية متميزة وسط أغلبية ساحقة تختلف معهم من الناحية التشريعية والسياسية. فمثل هذه المفارقات التي تشير إليها التفاتة المؤرخ بييار فيلار كانت واضحة الأبعاد على وجه الخصوص في مقاطعة كمقاطعة بلنسية (Valencia) التي تعتبر أكثر المناطق تشبثا بالموروث الحضاري الأندلسي العربي الاسلامي وذلك نظرا لدورها التاريخي المعروف ولموقعها الجغرافي المُطل على ديار الاسلام، ونظرا للعدد الكبير من الأهالي المورسكيين المسجلين في قوائم الرقابة لمحاكم التفتيش (Inquisición) إبّان القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادي، وكذلك نظرا لظاهرة التجمع الهائل التي جعلتهم يختلفون عن باقي الأقليات المورسكية الأخرى المبعثرة في المقاطعات والتي كانت عرضة للذوبان والاندماج مما جعلها تُعرف باسم «المُدجّين» (Mudejar)؛ أي الذين رضوا بما سُلط عليهم من المسخ. أما مقاطعة بلنسية فإنها عرفت عنادا واستماتة من طرف المورسكيين بفضل تجمعهم وانغلاقهم على أنفسهم.

من هذا التمايز الواضح كان على المملكة الاسبانية أن تضع في حُسبانها قضية هذه الأقلية غير «المتضامنة» (Insolidaria) مع الجميع؛

كما تسميها أغلبية المصادر، بل تعتبرها عنصرا غريبا لا يمتُّ للشعور الجماعي بأية صلة؛ بالإضافة الى هذا العامل الحساس فإن ظاهرة الشعور بالمواطنة والانتماء الجغرافي في مثل تلك العصور المتقدمة بالنسبة لبلد كإسبانيا وأروبا عامة يعدّ مراهنة ما تزال قيد الدراسة والمراجعة، وخاصة أن تلك الفترة بالنسبة لإسبانيا التي وضعت مقاليد صولجانها بيد أسرة من أصل نمساوي حتمت المزيد من اليقظة والالتفاف حول السلطة وقد زاد من هذا الوضع السياسي الحذر كون التهديدات الخارجية ما تنفك تهدد الوحدة اللينة، بتحركات خطيرة، كالتي ظهرت من فرنسا كما يوضحها خوان ريثلا (Juan Regla) في كتابه «المورسكيون» ابتداء من صفحة 10 (6) بالإضافة الى خطر القرصنة المتزايد في وسط البحر الأبيض، وكذلك خطر المغاربة والأتراك العثمانيين الذين يتوجسون منهم خيفة التضامن مع هذه الأقليات قصد إغاثتهم. كل هذه المؤثرات الداخلية والخارجية مهدت السبل للتفكير بجدية في قضية طرد المورسكيين من شبه جزيرة إيبيريا. لكن فكرة الجلاء هذه قد جرت تساؤلات من قبل السلطة حول ما اذا اعتبر مثل هذا الحل نهائيا وناجعا ضد أقلية تعتقد أن وجودها على هذه الأرض وجودا شرعيا يغذيه حس متزايد بروح وطنية موروثه عبر أجيال. وقد جرّ هذا الى طرح سؤال حول ما اذا استمر خطر هذه الأقلية حتى من وراء البحر، وقد عبر عن هذا الإحساس بالحيرة الاسقف خوان بابتيستا بيرث (Juan Baptista Pérez) في مقولته الشهيرة حين أراد أن يحسم في أمر التخوف بالحل الوسط قائلا : «إنه لأقل خطرا أن يكونوا مسلمين هناك على أن يبقوا هنا بإسبانيا» (7). اذا، فخطورة هذه الأقلية في التصور المسيحي هي ذات حدّين؛ خطورة سياسية تهدد الأمن والوحدة، وخطورة روحية تزعج التطلعات الصليبية التي تهدف الى توحيد العقيدة من خلال الوحدة السياسية وتوسيع رقعة النفوذ المسيحي كي يعم جميع المناطق.

(6) انظر Juan Regla : Estudios sobre Los Moriscos. Ed. Ariel, Barcelona, 1974, p. 10.

(7) انظر Boronat y Barrachina (Pascual) : Los Moriscos Españoles y su expulsión. Ed. Imprenta Francisco Vives y Mora Valencia, 2 vols : 1901, p. 365 vol. 1.

محاولات التدجين الفاشلة

لقد سبقت عملية النفي للمورسكيين العديد من المحاولات الفاشلة من طرف المملكة الاسبانية قصد تدجينهم أو فرض الزامية ادماجهم في وسط اعتبره المورسكيون غريبا عن مقوماتهم الروحية والعرفية. لذا كان على التاج الملكي النصراني أن ينتظر زمنا طويلا نسبيا كي يتوج في معظم محاولاته بالفشل الذريع وذلك نتيجة التعسف الذي ساد كل محاولات الدمج أو التدجين وهو ما جعل هوة التباعد بين الطائفتين تزداد عمقا ولعل مرد ذلك أيضا يكمن في حالة الاصرار المستمر من قبل النصارى حتى يصلوا بمحاولاتهم الى مطبُّ بلا مخرج لا يبقى من خيار سوى التفكير الجاد في عملية الجلاء الجماعي بطرد المورسكيين من شبه جزيرة إيبيريا وإذا لم يتم مثل هذا الخيار على أحسن ما يرام فقد يعوض بعملية إبادة ولو جماعية لهذه الأقليات غير المتضامنة في رأيهم والتي تحولت الى خطر يهدد الأمن الداخلي والخارجي للمملكة. وقد نجحت هذه الخطة بفضل سهر حُرّاس الصليب على إذكاء نار الحقد في أوساط العامة والخاصة فتمكنوا من إقناع الملك وحاشيته وكذلك قدماء المسيحيين الذين يعتزون بأرومتهم النصرانية المعنة في العداوة لأسلاف طائفة المورسكيين، فكان مسار التمهيد للوصول الى الهدف المنشود قد عرف كثيرا من التراجعات التي تُكَلِّل بالفشل الذريع وتكون في الوقت ذاته حافزا للدخول في محاولة ثانية وأخيرة ألا وهي إصلاح حال المرتدين الى الديانة النصرانية من طائفة المورسكيين المسلمين وإحكام الرقابة من حولهم، وتعبئة الرأي العام لمتابعتهم ميدانيا ثم تسليط الاضواء بقوة حول الأقليات المصرة على تقوقعها وتشبثها بمبادئها وقيمها المناهضة للنصارى، وإحصاء ما ينجّر عن تصرفاتها من أخطار تمس بأمن البلاد والعباد. فكانت نتائج المسح الأولية، وكفرضية مبدئية لحل الأزمة هو الاجماع على ضرورة الدمج والتدجين لهذه الفئة حتى تذوب ويضمحل معها الخطر ويتلاشى مظهرها كأقلية انفصالية معارضة.

إلا أن هذه المحاولة التي ظلت طوال قرن قيد التجريب نجدها تُتَوَجَّح

هي الأخرى بالفشل الذريع مما زاد من حدة التوتر ولعل مرد ذلك دائما تعمد استغلال الوسائل غير الناجعة لتطبيق تطبيقا تعسفا جائرا جعل الشعور المورسكي يرفض وبشدة مثل هذا الاحتواء المكره الذي كان في فحواه الأصلي بمثابة الابتلاع والابادة ومن هذا الوعي المورسكي بمدى خطورة ما ينجر عن مثل هذه المحاولات تولدت روح المقاومة الرافضة لأي نوع من أنواع الانسلاخ الأمر الذي دفع بهذه الأقليات المضطهدة الى الولوج في متاهات جعلت الأسقف فرنسيسكا (Francesca) ينعتهم وهم أمام هذه الاختيارات الصعبة بمقولة لها أكثر من مدلول صريح «لقد بلغ المساكين درجة من الحيرة جعلتهم لا يعرفون أيكونون مسلمين أم مسيحيين؟» (8).

أما ما تبقى من تعاليم روحية عند هذه الأقلية فإننا نستطيع أن نقول إنها أفرغت من محتواها العملي وتحولت الى مجرد طقوس تقليدية باردة لا تتعدى حيز الحركات وذلك نتيجة الرقابة والحصار المستمرين عليهم. وقد زاد من جور المظالم المسلطة على هذه الأقلية كون الشرائع القانونية بالنسبة لأحكام القرن السادس عشر نجدها تجعل من اللغة قيمة وطنية في حد ذاتها. وعلى إثر هذا الاحساس الصارم سجل أسقف مقاطعة أورهُويلا (Orihuela) بالجنوب الشرقي من إسبانيا الدكتور استيبان (Estevan) عام 1595 هذا الشرط القاسي والقاسم بين الولاء والتمرد جاعلا من اللغة حدا فاصلا بين الانتماء الى جماعة معينة أو الانسلاخ عنها في قوله : «لما تكون الشعوب مشدودة إلى امبراطورية واحدة فان المغلوبين يتحتم عليهم تعلم لغة أسيادهم» (9).

لقد كانت مثل هذه الصيغة موجهة في أساسها للقضاء على بقايا رواسب اللغة العربية التي ما تزال سارية المفعول بين بعض الأقليات المتشردمة في الأوساط المسيحية المكثفة، أو منتشرة انتشارا سافرا في مقاطعة بلنسية لما تضمنه من نسبة عالية من المورسكيين.

Juan Regla : *Los Moriscos...* Vol .1, p. 112

(8) انظر

Boronat : *Los Moriscos Españoles*, col 2. p. 629

(9) انظر

كما أن هذه الصيغة الناطقة باسم السلطة الروحية في مملكة نصرانية حتى النخاع تقدّس الصليب وتعاليم البابا جاءت بدورها لتُنذر أتباع المملكة في المقاطعات التي ما تزال تعتمد لغات محلية رُومنيّة (Romance) غير متجانسة مع لغة التاج القشتالية، كلغة مقاطعة أراغون وكطلونيا والباسك والحليقية وحتى البلنسية نفسها؛ إلا أن هدف الصيغة يبقى واضح التحذير في توجهه للأقلية المسلمة، وكانت مثل هذه الغاية أيضا هي إحدى الدوافع لتوطيد القواسم المشتركة للوحدة الداخلية.

إلا أن مواجهة اللغة العربية ومحاولة إبادتها أوقع محاكم التفتيش في مجابهة واقع معيش فرض عليهم في آخر المطاف الركون الى مفعول اتفاقيات مرحلية، فبعد الثورات العارمة التي شهدتها منطقة بلنسية للتصدي الى متابعات محاكم التفتيش، نجد تاريخ 1528 يُتوّج بقرار امبراطوري من امضاء شريكان وذلك في 17 من شهر جويلية مفاده حصيلة تلك المباحثات التي دارت بين شيوخ المورسكيين بمقاطعة بلنسية وممثلي السلطة الملكية لكون هذه المنطقة مأهولة بعدد كثيف من المسلمين واللغة العربية بين ظهرانهم هي الوسيلة الوحيدة التي يعرفونها كأداة للتخاطب فيما بينهم، ومع جيرانهم؛ فإن فرض التخلي عنها في مثل تلك الظروف يعد أمرا مخالفا للواقع أو مستحيلا لأن تعلم لغة أخرى يقتضي ضرورة مهلة كافية، من هناك كانت مطالب الجماعة المورسكية في المفاوضات هي فُسحة زمنية تقدر بأربعين سنة يتكون بعدها اللغة العربية ويتمصون لغة التاج. لكن المفاوضات من محاكم التفتيش رفضوا هذا المطلب وقلصوه الى عشر سنوات كحد أقصى يسمح للمورسكيين في مجراها من استعمال اللغة العربية والانكباب الجادّ على تعلم الرُومنيّة البلنسية أو اللغة القشتالية لغة التاج»⁽¹⁰⁾ أو الأعجمية (El Aljamiada) التي ستصبح فيما بعد لغة المورسكيين، وهي عربية تكتب وتنطق بحسب مخارج الحروف اللاتينية. إلا أننا نجد المورسكيين لا يلتزمون بهذا

الاتفاق وبعد ثمانين عاما على امضاء الاتفاقية نجد المصادر التاريخية، والدارسين المتخصصين في ميدان «الأعجميات» أمثال Boronat بروناط، في كتابه «مورسكيو اسبانيا ونفيم» وكذلك (Cardaillac) «كاردياك» وغيرهم يوقفوننا على رصيد هائل من التراث المورسكي الذي نشط في مجالات فكرية متعددة وعلى وجه الخصوص الديني منها والأدبي.

حظر اللغة العربية والمؤلفات المورسكية من قبل محاكم التفتيش

إذا أردنا معالجة قضية اللغة العربية كأداة من مقومات الشخصية العربية الاسلامية بالنسبة للأقلية المورسكية فإنها تجعلنا نقرُّ بأنها كانت واسطة الصراع الفاصل بين الطائفتين المتنازعتين وهذا بالرغم من تقلصها وانحسارها وغربتها التي لم تُبق منها سوى شبح مبهم إلا أن هذا المتبقى من وهج اللغة العربية ظل يقض باستمرار مضاجع زبانية محاكم التفتيش الأوصياء على مصائر البشر، علما بأن العربية المتبقية من بعد الانكسار الطويل الذي تجاوز القرن والنصف هي عبارة على عامية سفسافة تتجلى في الأوردة والأدعية الجوفاء، حيث لا تؤهل المتحدث بها الى الخوض في محتوى القرآن الكريم والسنة النبوية مثلا، وهذا بشهادة بعض الفقهاء المورسكيين البننسيين حيث يعترف أحدهم قائلا : «انه يعرف القراءة والكتابة باللغة العربية لكن ما يفهمه من قراءته للقرآن هو قليل جدا إن لم يكن لا شيء»⁽¹¹⁾. إلا أن مثل هذا الحكم لا يمنع من وجود بعض الفقهاء المجتهدين بحكم تمسكهم بالقيم الاسلامية من المداومة على حفظ القرآن الكريم والمواظبة على تحفيظه في جو تسوده المضايقة والمتابعة والمراقبة والتجسس وهذا ما حدا بالباحث المؤرخ «بروناط» مثلا الى أن يذكر هذا ويقرُّ بأن الأقلية المورسكية في مناطق أخرى كأراغون مثلا قد فقدت انتماءها اللغوي واضطرت الى أن تبعث بأبنائها الى منطقة بلنسية لتعلم العربية واستعمالها.

(11) انظر Julio Caro Baroja : *Los Moriscos del Reino de Granada*, Ed. ISIMO, Madrid 1976, p. 158.

إلا أن قضية العامية أو لغة الاستعمال اليومي التي كانت متداولة بين المورسكيين وخاصة في نواحي بلنسية الأكثر محافظة فإنها جعلت الدارسين لا يصلون في اشكاليتها الى فصل مقنع قصد تحديد نوعيتها، إلا أن بعض الاشارات الأدبية العابرة كتلك التي أوردها الأديب المسرحي الاسباني الشهير لوبي دي بيكا (Lope De Vega) «1562 — 1635» في ملهاته «الفاقة المرغوبة» نجده في أحد فصولها يعمد إلى تصوير أحد أبطاله الاسبانيين المدعو ليونيلدو (Lionildo) وهو يتجول به في شمال افريقيا ويلهج بلغة عربية بلنسية في أوساط سكان المغرب العربي وفي أثناء الحديث نجده يفتح حوارا بين بطله وبين أحد السكان المحليين نترجمه كالتالي :

«.. قال أيضا : أين تعلّمت لغتي هذه؟

تساءل أحد المواطنين.

أيّ مسيحي يسكن بجوار مورسكي مقاطعة بلنسية يتعلّمها مثل :
أجاب ليونيلدو«(12).

لكن مثل هذا الشاهد الوحيد لا يمكن أن يقوم كحجة تبرهن على أن اللغة المستعملة بين المورسكيين في مقاطعة بلنسية آنذاك هي شبيهة الى حدّ ما بما كان مستعملا من لغة حوار بين سكان شمال افريقيا، إلا أن ما يمكن الاقرار بصحته هو أن اللغة العربية أو العامية منها المنبثقة عن الفصحى فان مدى صفائها وتكدرها مرده الى المكان والزمان الذي تنشأ وتنتشر فيه، فالمعلوم أن أقليات المورسكيين كانوا موزعين بحسب الزحف المسيحي الاستردادي الذي شملهم فمثلا نجد أولئك الذين شملهم الحصار الكلي راحوا تدريجيا يندمجون برغم الحفاظ والمقاومة فتلاشت وحدتهم اللغوية لعدم قدرتها على مقاومة التشرذم الذي أطاح بتراص وحدتهم فلم تتمكّن اذا من التصدي الى حتمية الأمر الواقع فكان أن تراجعت أو تقهقرت أمام الغلبة وتقلصت لغتها تقلّصا

(12) انظر Lope de Vega : *Obras Completas*, Ed. Rivadeneyra, Tomo IV, p. 159

ملحوظا في المجال العملي لتحتمي بالضمير وتختزن في الوجدان كما حصل ذلك في مناطق الشمال المأهولة بالمسيحية الكاسحة في حين أن المناطق التي ظلت محافظة على كينونتها وصرورتها العربية الاسلامية وعلى المقوم الفعال الذي يتجسد في الأكثرية المتراصة الوحدة كمنطقة بلنسية كما أشرنا لذلك سابقا، وبعض المناطق الأخرى التي ظلت بمعزل عن الحصار نتيجة تحصنها في بعض الجيوب المعزولة متخذة من الجبال والمناطق المهجورة النائية ملجأ لها فقد حافظت هي الأخرى على لغتها كما تقر بذلك بعض محاضر المفاوضات التي كانت تدور من حين لآخر بين شهود محاكم التفتيش ورؤساء الجماعة، علما أن مصطلح «الجماعة» ظل متداولاً في مثل هذه المحاضر طيلة أعوام المواجهة لأن الأقليات المورسكية يظهر أنها كانت تخضع الى نظام الشورى الذي يعتمد على الجماعة في كل مفاوضاتها كناطق رسمي باسم مصيرهم ومستقبلهم . فقد ورد في محضر عام 1595؛ أي مشارف القرن السادس عشر الميلادي؛ وهو تاريخ جَد متأخر بالنسبة للحضور المورسكي على أرض المقاومة حيث يقول المحضر : «... معروف وثابت أن هناك مشكلة عويصة لتلقي هؤلاء المورسكيين لأنهم حتى وان لُفِنوا من طرف أساتذة كبار سيظلون يجهلون لغتنا لأن بعضهم يعيش في مناطق وعرة وجبلية وخطيرة ولا وجود لمسيحي بين ظهرانيهم»⁽¹³⁾.

ويضيف هذا المحضر مفصلا الوضع اللغوي مشيرا الى أن «كثيرا من الرجال والنساء لا يفقهون اللغة البلنسية ولا القشتالية وذلك نتيجة التعامل القليل والتبادل التجاري الضيق الذي لا يخرج عن حيز دوائريهم المعروفة»... بل تجاوز الحد بأقلية المورسكيين القاطنة بمقاطعة بلنسية مثلا أن بلغت درجة من الوعي بخطورة الموقف عمق إصرارهم وتماديهم في تفضيل الأجواء المغلقة حتى لا يكونوا عرضة لأي أثر مهدد لوحدتهم وتراصهم، فكانت اللغة في هذا السياق ذريعتهم وشافعهم في التواصل وكان بواسطتها يتم الفرز الصحيح، وبها كذلك تم الثقة لابرار

التبادل وخلق أجواء للتعامل النقي، فمثل هذا الاحساس الواعي والمدرك حيز إليهم الانغلاق لأن فيه سلامتهم وأمنهم وطمأنينة مستقبلهم وبه قاوموا منطلق الاندماج الذي كان الطرف المضايق لوجودهم يصر على النفاذ إليهم من خلال تنازلم على لغتهم واستبدالها بلغة الأعداء. وقد أدى مثل هذا الحافز بأحد زبانية محاكم التفتيش ألا وهو سيباستيان دي انثيناس (Sébastien De Encinas) الراهب بدير مونسيراط (Monserat) عام 1602؛ بأن يسجل في أحد محاضر التفتيش هذه العبارات الدالة وهو يرى مفعول ما يصفه مجسدا بين ظهراي الجماعة المورسكية المتضامنة فيما بينها والمتراصة الصفوف، والمعنة بعناد شديد في التعامل بلغتها العربية وسط محيط غير متجانس مع كيانهم وغير مرتاح البتة لمثل ما يجري من تصرفات فيقول الراهب بلهجة التأسّي الحانقة «... إنهم — المورسكيين — بلذة وإشهار يتحدثون العربية»⁽¹⁴⁾؛ كما لاحظ الأسقف Estevan استيفان بدوره مدى تعفّف النساء المورسكيات على وجه الخصوص من استعمال اللغة الأجنبية، ومثل هذه التجاوزات حسب إجماع محاكم التفتيش أصبحت تستدعي الاسراع باتخاذ التدابير الصارمة لردع مثل هذا التحدي السافر من جانب المورسكيين المعنّين في عدم قبول مبدأ الاندماج ورفضه جُملة وتفصيلا.

وقد سجلت محاضر محاكم التفتيش عيّنات دالّة لمثل هذا التحدي الصارخ والصريح من قبل بعض المورسكيين الذين اتصفوا بروح المقاومة وقوة العقيدة في مجابهة تعسّف طاغوت محاكم التفتيش، فقد تجلّى مثل هذا التحديّ مثلا فيما أقدم عليه المجاهد المورسكي ميثال موسى (Miguel Muza) كما تسميه محاضر التفتيش وهو أحد المجاورين بقرية «تشيفا» (Chiva) والذي أصدرت في حقه محاكم التفتيش قرارا بالاعدام عام 1573؛ فكان هذا الفقيه الجليل كما تصفه محاضر محاكم التفتيش : «لا يتحدث ولا يكتب إلّا باللغة العربية... ويواصل المحضر مخبرا أن

هذا الرجل كان له أبناء فُرض عليهم كغيرهم الالتحاق الاجباري بالمدارس المسيحية لتعلم اللغة القشتالية والمعاملات وكذلك الحضور للصلوات بالكنيسة لكنه ما انفك أن أخرجهم من تلك المدارس وانكب على تلقينهم في بيته العربية والقرآن... وبالإضافة الى هذا تقول المحاضر إنه كان يتجمع في بيته العديد من الرجال والشباب ليتلو عليهم كتابا كان يملكه باللغة العربية يحتوي على موضوع الجدل الذي دار بين المسيح ومحمد صلى الله عليه وآله أين يُظهر فيه الاسلام على المسيحية» (15)

وقد كان لتأثير هذه الأقليات المورسكية أثرها الواضح في بعض المقاطعات المسيحية فنجد على سبيل المثال الأثر الملموس للظاهرة اللغوية في المقاطعة الكطلانية مجسدا في تلك الغروة اللغوية التي تزخر بها اللغة الكطلانية والتي يعود أصلها أو أصل اشتقاقها الى اللغة العربية؛ وقد ذكر الباحث الفرنسي كاردياك (Cardailiac) أن من أسباب توغل العربية في الأوساط المسيحية على الرغم من مكافحتها ومحاولة استئصالها هو دافع تأمين الذات من عدو متربص ومجاور فأدى مثل هذا الحافز الى التشجيع على تعلم العربية قصد الاطلاع أكثر على أسرار العدو وتحركاته، بالإضافة الى ذلك هناك دافع أمني آخر يتمثل في تفشي جِرفة الجوسسة التي كانت تشجعها الكنيسة والمملكة على وجه الخصوص (16): إن من يعود اليوم الى المحاضر الكنسية يجدها قد حفظت لنا العديد من الوثائق التي تدل على تواصل استعمال اللغة العربية في الأوساط المورسكية إلى تاريخ متأخر وخاصة من طرف الفقهاء بمنطقة بلنسية فيقول الأسقف فيغيرا (Figuera) في احدى مذكراته متحدثا عن كتب المورسكيين عموما بأنها كانت «تحتوي على عقود الزواج، والبيع وعلى الأسماء العربية» (17) كما عدّد كل من «برونات»، و«كاردياك» مجموعة من الفقهاء المورسكيين الذين كانت مهمتهم اليومية موقوفة على التدريس بالعربية وليس فقط في الميادين

Boronat : Los Moriscos Españoles, col 1, p. 362

(15) انظر

Louis Cardailiac : Le passage des Morisques en Languedoc, Montpellier 1970, (pp. 34-49).

(16) انظر

Baroja : Los Moriscos... p. 171

(17) انظر

الدينية بل تجاوزت الى تعليم المواد العلمية كالطب وعلوم أخرى وهو ما أشار اليه بتفصيل ضاف خ. فونيل فرين (J. Fonnel-Guerin) في كتابه «الكتاب والحضارة المكتوبة في أوساط الجماعة المورسكية الأراغونية» الصادر في باريس عام 1979. وقد أدرك رجال الكنيسة ومحام التفتيش خطورة مفعول اللغة في معتقد الفرد المورسكي حيث لمسوا حتى من المرتدين الى المسيحية أنهم لم يتمكنوا من التخلص من مفعول العربية فحتى في تعاملهم مع المعتقد الجديد راحوا يتدرجون الى جوهره بواسطة العربية وهو ما تسبب في عرقلة نفاذهم الى صميم الاعتقاد الجديد بل تسبب في معضلة التشكك في النية مما جعل الاطمئنان الى صدق إيمانهم يظل مشوبا بالحذر الشديد ويضعهم دائما موضع الشبهات والتشكك الأمر الذي وقف عائقا في طريق الاكراه على التمسح.

فبالنسبة لرجال الكنيسة نستطيع أن نجزم بأنهم أدركوا ادراكا مبكرا جدلية ارتباط اللغة العربية بالإسلام كعقيدة وتشكلهما في ثنائية ذات علاقة تبادلية يصعب الفصل بينهما مما جعل المجلس الملكي عام 1595 يقرر في حق المنتصرين هذا القرار الواضح الأبعاد والهادف الى استئصال اللغة العربية فيقول: «ان الذين اعتنقوا المسيحية عليهم أن يتخلوا على اللغة العربية اجباريا» ويرى الدكتور استيفان «أن اللغة العربية تقف كحاجز منيع أمام ارتدادهم الى النصرانية»(18).

إنه كما يلاحظ شعور طبيعي بالخوف من فعالية هذا المجهول وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بلغة عدو؛ لقد بات الأمر بالنسبة للنصارى في منتهى الخطورة لأنه بالامكان أن يدبر بها أمر ما قد يهدد استقرار المملكة، وقد حذر من مثل هذا المطبّ أو المنزلق عالمهم المتعصب لضرورة الوحدة الدكتور استيفان الذي ما فتىء يكرر: «العربية! حذار إنها فرصة سانحة لهم كي يدبروا بواسطتها ضدنا أخطارا جساما»(19).

Boronat : Los Moriscos Españoles, col II, p. 651

(18) انظر

Boronat : Los Moriscos Españoles, col II, p. 652

(19) انظر

وقريب من هذا التحذير المشوب بالحيرة ما زاد في التأكيد عليه في مطلع القرن السابع عشر الميلادي أسقف سيغوربي (Segorbe)، دون فيليثيانو دي فيغيرا (Don Feliciano de Figuera) فقد دعا وبصریح العبارة «أن لا تبقى الجماعة المورسكية متكثلة، بل يجب أن يتم ذلك ان وجب بمحضر الحاكم المسيحي، كما يجب أن تدار المشاورات فيما بينهم بلغتنا وليس بالعربية» (20).

وكما هو معلوم وجلي في أي محاولة من أجل اضطهاد أو استئصال لغة تتحول الى وسيلة مقاومة بالنسبة لأي أقلية، فإن أول ما يفكر في ضربه هو منع تعلمها في المدارس أو الكتاتيب وهو الأمر الذي تمت المصادقة عليه بالاجماع في المجلس الملكي لعام 1565 (21) حيث نص القرار على المنع البات لكل طفل متنصر أن يتعلم إلا باللغة القشتالية أو البنسنية.

متابعات محاكم التفتيش للمخالفين

بعد هذه القرارات والاجراءات المتتالية للتقليص من مفعول اللغة وتقوق الأقلية المورسكية نجد السلطة توجه عناية خاصة لرجال الدين من هذه الأقلية ويصبح الفقهاء محل شبهة ومتابعة رسمية ومستمرة، وأصبحت قرارات محاكم التفتيش حاسمة مع الباء الذين توجه اليهم تهمة التقصير مثلا في حق أبنائهم كعدم ارسالهم الى المدارس المسيحية، أو محاولة تلقينهم العربية والتعاليم الاسلامية خفية، وقد زاد الجمع البنسني الحاكم عام 1608 من اتخاذ التدابير الأكثر جدية وصرامة فتجاوز القرار الملكي الأنف الذكر بمضمون الصياغة التالية والقائلة : «حتى يتسنى هؤلاء المورسكيين من تعلم لغتنا ونسيان وترك لغتهم فإننا نطلب من جلالته الموافقة على إرسال مدرسين من المسيحيين القدامى إلى كل الأماكن الأهلة بطوائف المورسكيين غصبا عنهم حتى يقوموا على تعليم أبنائهم القراءة والكتابة وكذلك تعليم نسائهم وبناتهم الحرث والخطاطة...» (22).

Boronat : Los Moriscos españoles, col II, p. 537

(20) انظر

Juan Regla : Los moriscos, col I, p. 143

(21) انظر

Boronat : Los Moriscos Españoles, col II, p. 537

(22) انظر

وبموجب هذا القرار الاستثنائي والاضافي أصبحت كل المكتوبات باللغة العربية كفيلة بأن تدين صاحبها بأقصى التهم حتى ولو كانت هذه الوثائق نسخا من عقود الزواج، أو البيع أو الملكية أو التوثيق أو ما شاكل ذلك. الأمر الذي دفع بالأسقف فيغيرا (Figuera) أن يطلب من الملك «بأن ينشر في أوساط المورسكيين الكتب باللغة القشتالية أو البنلسية حسب نصيحته للملك فيليب الثاني، وأن ينتزع منهم كل الكتب العربية ومختلف الوثائق حتى ولو كانت كتبا علمية أو غيرها»⁽²³⁾، كما دعم مثل هذه النصيحة بتزكية موجهة الى الملك أيضا الراهب نيكولاس دلرئو (Nicolas Del Río) في رسالة ضافية عام 1606.

من هناك ظهر ما يشبه التنافس بين رجالات الكنيسة من حيث النصائح والاجتهادات المتتالية التي أصبح يعج بها ديوان الملك، فإذا كان على سبيل المثال الراهب نيكولاس (Nicolas) يدعو الى حرق وإتلاف كل ما هو مكتوب بالعربية فان رفيقه الأسقف فيغيرا (Figuera) أعلن وبصوت عال أنه «يجب معاينة كل من يكتب بالعربية»⁽²⁴⁾؛ لكن من حول هذه المعركة الدائرة حول مفعول اللغة العربية نجد الرهان الرابع بحسب تصور السلطة الروحية يوضع على كاهل الأطفال المورسكيين، اذ راهنوا وبشدة على إيجاد السبيل الناجع لآخراجهم من ورطة التشبث بلغة آباءهم، محاولين ضرب أمل الآباء بالأبناء عليهم في آخر المطاف يستسلمون لقدر فلذات أكبادهم؛ فكان القرار في هذا الشأن حاسما وصرحاً للغاية، حيث حولت السلطة الملكية للأسقف دون خورخي دي أوستريا (Don Jorge De Austria) عام 1566 أن يملي فحواه حسب رغبته فكان الأمر الصادر للمورسكيين «وخاصة الآباء والأمهات بأن يعملوا على تلقين أبنائهم منذ الصغر اللغة البنلسية حتى لا يجدوا صعوبة في نسيان اللغة العربية عند الكبر»⁽²⁵⁾.

Juan Regla : **Los Moriscos**, col I, p. 145

(23) انظر

Juan Regla : **Los Moriscos**, col I, p. 145

(24) انظر

Juan Regla : **Los Moriscos**, col I, p. 145

(25) انظر

لكن مثل هذا الرهان المشلول الذي أيده السلطة الملكية بوحى من السلطة الروحية التي تصدر محاكم التفتيش نجده لم يحقق بدوره الأهداف المنشودة ويدل على صدق الفشل الذريع الذي منيت به مثل هذه المحاولة اليائسة القرار الملكي المسجل في رسالة الملك فيليب الثالث والموجهة الى عاملة ماركيز مقاطعة بلنسية وذلك عام 1608 اذ تقول : «يجب أن يوضع في الحسبان بأن فرض خلع الملابس الاسلامية وعدم التحدث باللغة العربية يحد من القرارات التي تمس المورسكيين في صميم كرامتهم الأمر الذي عرقل إقدامهم على الارتداد الى ديانتنا»(26). وفي التاريخ نفسه أعلنت الجمعية الناطقة باسم مقاطعة بلنسية بما يقارب فحوى القرار الملكي حيث زادت من التأكيد على صعوبة فرض خلع الملابس ذات الطابع المغربي الاسلامي على هذه الأقلية لأنها تشكل في حد ذاتها أكثر من مغزى بالنسبة إليهم فما بالك باللغة التي تعتبر إحدى دعائم مقومات شخصيتهم.

داخل هذا الاطار المتباين شكلا ومضمونا : نجد العوائق التي جابهت السلطات الملكية والروحية تأخذ صبغة الموضوعية مما جعلها من الصعوبة بمكان لايجاد الحل المناسب لها وخاصة أن الأقليات المورسكية راح اصرارها يزداد يوما بعد يوم على عدم القبول بالتبعية والانسلاخ عن مقوماتها : وقد دفع مثل هذا الاصرار ببعض المورسكيين المجاهدين والمتشبهين بعقيدتهم ولغتهم أن يعمل على إثبات التهمة من حوله ويرغم محاكم التفتيش على اصدار أمر الحرق في حقه؛ وهناك في ساحة الاعداء يزيد من نكايته وتحديه لهذه المحاكم المتعصبة؛ فما إن تثبت إدانة وتقدم له التهمة المصادقة عليها بخط يده يتلقفها ويمضيها باللغة العربية أمام الملا مما يُوقد صدور الرهبان غيظا وحقدا ويجن جنونهم فيسارعون بالتعجيل بإحراقه(27).

فمثل هذا التحدي والتماهي لا يمكن فهمه إلا بمنطق واحد هو أن العنف يولد العنف، والتعصب يُجابه بمثله وان دل كل هذا على شيء

Boronat : Los Moriscos Españoles, col II, p. 140

(26) انظر

Boronat : Los Moriscos Españoles, col II, p. 135

(27) انظر

فإنما يدل على غياب التسامح والمرونة السياسية والدينية لاستقطاب الأهداف باستعمال الوسائل المعقولة وهو ما عجزت عن تحقيقه محاكم التفتيش التي يحز في نفوس طاقمها أن تعترف أن اللغة العربية المستهدفة مثلا ظلت واستمرت في مقاطعة بلنسية بدون انقطاع الى غاية فجر الجلاء المعروف وهو حلّ العاجزين عن التمام كما يقال.

إمعان السلطات الكنسية في مصادرة العربية

بموجب الاجراءات المتشددة السالفة الذكر أصبحت اللغة العربية والكتابة بها وكلّ ما يمتّ لها بصلة محلّ شبهة وإدانة في مفهوم الأعراف المسيحية لذا اتخذ من التداير لمكافحة ما يشبه الحملة الاعلانية والدعائية والوقائية من أجل المضي في مطاردتهما بشكل مستمر مما جعل أمر هذه الأقلية يتحول الى ما يشبه الحالات التي جابهت الدعوة الاسلامية في بداية ظهورها حيث أحيطت بمحشد من الجاهلين جعل الاقدام على مبدأ الشهادة بمثابة التضحية في سبيل العقيدة.

من هناك دخل الكتاب العربي مجابهة علنية مع قرارات محاكم التفتيش واستعيد الى الذاكرة ما يشبه العهد الأول من المضايقة التي شنها الكاردينال الصليبي الشهير خيمينيث دي ثيسنيروس (Jimenez Decisneros) عام 1500 على أعقاب سقوط غرناطة حيث تسجل لنا الوثائق الرسمية إقدامه الحاقد والشنيع على ارتكاب فعلته التاريخية المعروفة «اذ أقدم على حرق الكتب الاسلامية في الساحة العامة وبلغ عدد مجلداتها آنذاك خمسة آلاف دون وعي منه لقيمتها المعنوية أو الجمالية ذات الثمن الغالي، وكذلك فعلت محاكم التفتيش بمقاطعة أراغون التي أقدمت على حرق آلاف المصاحف ومختلف الكتب الأخرى في الساحة العامة أيضا»⁽²⁸⁾. وقد تجاوزت قرارات محاكم التفتيش مع المورسكيين الأواخر حدّ مصادرة كل ما هو مكتوب باللغة العربية الى «كل ما يكتب حول الديانة الاسلامية سواء بالحرف العرربي أو الرومنشي

(28) انظر سجل وثائق محاكم التفتيش مع المورسكيين المحفوظ بأرشفيف بلد الوليد (Valladolid) لسنة 1555، ص 25.

(الألخميادو) أو أي لغة عامية أخرى» لكن تبقى رغم كل هذه الجهود الاضطهادية محاولة القضاء على أثر الاسلام والعربية في شبه جزيرة ايبيريا بمثابة السراب الذي يحسبه الظمان ماء؛ لأن الوثائق الرسمية تثبت عكس ما رغبت محاكم التفتيش بلوغه من أهداف أقصاها القضاء المبرم على أثر الاسلام والعربية.

فهناك العديد من التواريخ المتفاوتة التي تذكر من حين لآخر بإصرار الكتابات العربية على التداول بين الأقليات المورسكية ففي التاسع من شهر يناير عام 1579 مثلا نجدها تذكر بأحداث تؤكد تداول الكتاب العربي واستعمال اللغة العربية في الحوار بين المورسكيين، وحتى بين المرتدين والمدجنين منهم في مقاطعات شمالية مُغرقة في الأوساط المسيحية الغالبة كأراغون؛ فقد أبلغت السلطات الكنسية بتلك المقاطعة قداسة مفتش محاكم التفتيش العام بأن جهوداتهم يجب أن تنصبَّ على متابعة الفقهاء على وجه الخصوص وإصدار الأوامر بالقبض عليهم أينما وُجدوا دون أن تنسى إيقاف رؤساء الجماعات من عليّة المورسكيين فيقول البيان «إننا نلفت جنابكم الموقر الى ما تمكنا من العثور عليه بين هؤلاء المرتدين من الفرق المحمدية من الكتب العربية التي في حوزتهم قصد التعلّم بها وكذلك إلى الروابط والاتصالات التي تتم فيما بينهم وخاصة مع سكان الجزائر، وللوقاية من هذه الأخطار نرى من الضروري إصدار الأمر بإلقاء القبض على الفقهاء والرؤساء منهم»⁽²⁹⁾. لذا أصدرت السلطات الكنسية قرارا يعاقب كل من يملك كتابا باللغة العربية أو يتعامل بها، ومثل هذه التهمة أصبحت كفيلة بجر صاحبها الى حبل مشانق محاكم التفتيش أو رمي المتهم في مجمرة ليحرق حيا كما يفعلون⁽³⁰⁾ وقد أصدرت السلطات الكنسية بمقاطعة أراغون في 15 فبراير عام 1593 قرارا تدعو فيه كافة المرتدين والمدجنين من المورسكيين اذا أرادوا التماس العفو من قداسة الكنيسة أن يخرجوا كل ما يملكونه من الكتب

(29) انظر الأرشيف التاريخي الوطني، بلد الوليد، ص 26.

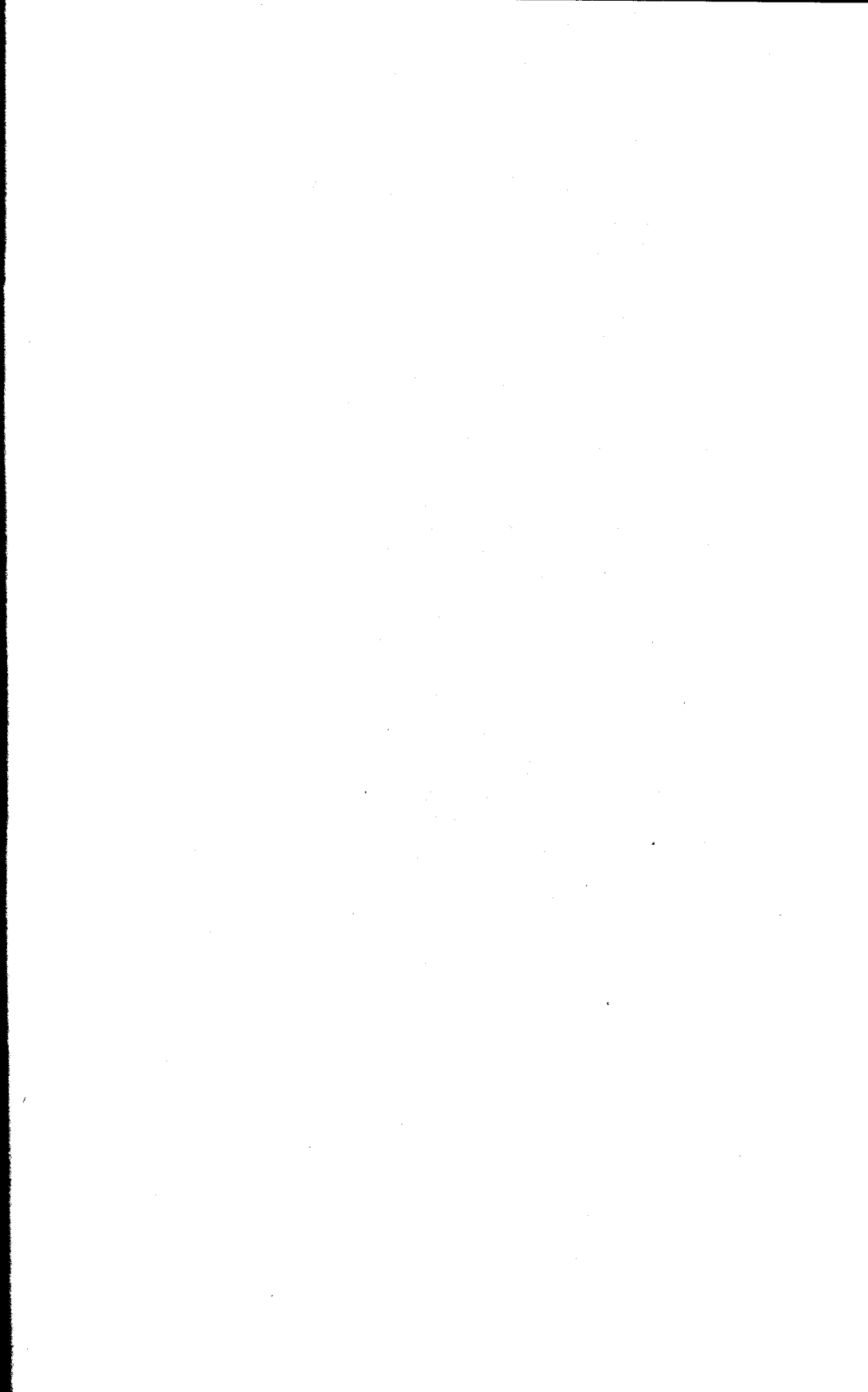
(30) انظر Louis Cardaillac : **Morisques et Chrétiens, un affrontement polémique** (1492-1640), Paris Klincksiek 1977, p. 56

العربية حتى تُغفر خطاياهم وتزول من حولهم شبهة الاتهام والمتابعة(31).
وبموجب هذا النداء الرسمي المصحوب بالوعد والوعيد تقدم العديد
من المنتصرين غصبا عن إرادتهم الى الحفل المقدس بما يملكون من كتب
تعد محظورة وذلك قصد جر المترددين من المورسكيين، لكن البعض
الآخر من المورسكيين أصرَّ على الاحتفاظ بها وإخفائها.

ويبقى مع كل ذلك أن مثل هذه القرارات المُجحفة في حق
الانسان والانسانية كانت تصدر باسم قداسة الكنيسة حامية حِمَى
الدين والأخلاق وكانت تمارس وتنفَّذ بزبانية أشربت قلوبهم على حب
الانتقام من كل ما يمتُّ للإسلام بصلة.

لكن في حقيقة الأمر تبقى الاجراءات والقرارات المتتالية الصدور
بمثابة التموه لأن واقعية الأحداث تثبت ميدانيا أن المطاردة والتنكيل
والابادة الجماعية كانت تمارس في السر والعلانية ضد هذه الأقليات
المسلمة وغيرها من الأقليات الأخرى. وما القرارات والمراسيم إلا لجعل
مثل هذه الجرائم البشعة تكتسي صبغة الشرعية المطلقة، ولكن في آخر
الأمر أجمعت المصادر على أنها من قبيل التضليل الفاضح لأن واقع الحال
يسجل عكس ما تتظاهر به القرارات.

(31) انظر Louis Cardaillac : **Morisques et Chrétiens, un affrontement polémique** (1492-1640), Paris Klincksiek 1977, p. 27



الفصل الثاني

- ~ مائة المورسكين على تد الشعر الماحمي الإسباني
- ~ الملاحم الشعرية كشاهد عيان على مائة الترحيل
- ~ مجريات أحداث الترحيل الإيجابي حسب رصد الشعر الماحمي لها.



مأساة المورسكيين على وتر الشعر الملحمي الأسباني

لقد أنهى الملكان الكاثوليكيان مهمتهما العسكرية متوجة بأخذهم لآخر معقل للمسلمين بأرض الأندلس، فسلمت لهما مفاتيح قصر الحمراء من طرف أبو عبد الله الصغير آخر ملوك غرناطة المنكود الحظ رفقة قائده ابن كُماشة وذلك ليلا تحت ستار الظلام والصمت خوفا من انفلات رعيته وتحويلهم الى غرناطة مقبرة لهم ولأعدائهم. فكان تاريخ السابع من يناير عام 1492 هو الذي شهد ليلة الزفاف المشؤوم، وإن كانت معظم المصادر تجمع على التاريخ المعروف بالثاني (2) من شهر يناير عام 1492، لكن أصح الوثائق وأصدقها تؤكد التاريخ المذكور سلفا بناء على مستجدات في ميدان البحث تثبت ذلك⁽¹⁾. هكذا غنم التاج الموحد أعظم مدينة على المستوى الأوروبي آنذاك بشهادة الباحثين الأوروبيين أمثال غارسيا غومس، وراشيل آربي وغيرهم، وقد وقعا مع المهزومين معاهدة السلام بين قوسين لكنه سلام الغالب المرتقب للحظة الثأر، فكان هذا الحدث بالنسبة للملكين وللكنييسة الحليف المباشر

(1) انظر M. Carmen Pescador del Hoyo «Cómo fue de verdad la toma de Granada» a la luz de un documento inédito. Revista Al-Andalus n° 20, 1955, pp. 283-344;

وانظر كذلك Rachel Arié : *Algunas reflexiones sobre el Reino Nasri de Granada en el siglo XV*, B.A.E.O. XXI, 1985, pp. 157-179.

بمثابة انتصار عسكري وسياسي لا غير أما الانتصار الأكبر فهو يكمن في مخيلة كاردينالهم الشرير ثيزيروس (Cisneros) الذي ظل ساهرا على التخطيط له والاشراف بنفسه على تنفيذه.

فالانتصار الأشمل والأعظم بالنسبة للملكين الكاثوليكين فرناندو وإيزابيلا، وكذلك لثيزيروس يجب أن يكون انتصارا دينيا، لأن رغبة هذه الأطراف تكمن في خلق الوحدة الروحية الدينية والتي هي بالنسبة لهم أسمى وأشرف من الوحدة الوطنية وذلك بحسب منطق ذلك العهد. لكن مثل هذه الغاية لا يمكن أن تنال إلا على جسر من التنصير الاجباري لكل كائن حي يرزق على ظهر شبه جزيرة إيبيريا. من هناك نجدهم ينتقلون في تحقيق مهمتهم الى أصعب جوانبها وأخطرها وهو تنصير المغلوبين من المسلمين أو إبادتهم أو طردهم من الأرض التي يعتقدون أنها وطنهم ولا وطن لهم سواها... .

أما رأي الدين — كما أشرت سابقا — فإن ثيزيروس قد أظهر من الحماس والمباركة لمثل هذا المسعى مما جعل الملكان يقران تنفيذ خطته الجهنمية بدون مناقشة. فدفع بالملكين الى اعتناق أبشع الأساليب التي تتنافى وأبسط حقوق الانسان، من هناك جاء تاريخ 1502 كحدّ حاسم مع هذه الأقلية المنبثقة من أوار تلك الحضارة المهزومة. فكان عليهم أن يستجيبوا لشرعة الخيارات الثلاث إما التنصر وإما الموت وإما الجلاء. وفور دخول هذا القرار حيز التنفيذ أصبح الذين اعتنقوا الديانة المسيحية طواعية أو كرها، ظاهريا أو باطنيا، وكذلك أولئك الذين فضلوا روح المقاومة يعرفون في كتب التاريخ باسم «المورسكيين» (Moriscos) وهي تسمية جاءت كرد على تلك التسمية القديمة التي أطلقت من طرف العرب المسلمين على الذميين أو المسالمين الذين ظلوا على دينهم فكانوا يعرفون باسم «المستعربين» (Mozarabes).

أما لفظ مورسكي فهو من أصل لاتيني إغريقي فالموري (Mauri) حسب رأي المؤرخ الروماني سالوستيو (Salustio) الذي اهتم بالتأريخ لوقائع حرب يوغرطة ضد رومة يرى أن هذه التسمية تطلق على مجموعة

بشرية ذات البشرة السمراء، أما الأصل الاغريقي للتسمية فهو من «أموروس» (Amaurus) يعني داكن البشرة ومن هناك يشتق للصفة مُورو Moro يعني شديد السمرة وقد تمدد هذا المفهوم ليتحوّل في العصور الوسطى الى معنى الانسان غير المسيحي وهذا حسب رأي الشاعر الاسباني القديم فونثالو دي برثيو (Gonzalo De Berceo)، ومن هذه الاشتقاقات الخدرت تسمية مُورسكي التي تعني. غير النصراني والموجهة خصيصا لتعيين أقلية المسلمين ودليلنا على ذلك أنها لا تطلق مثلا على أقلية اليهود أو غيرها.

فظلت طائفة المُورسكيين أكثر من قرن تخفي عقيدتها الاسلامية ولغتها العربية كما سيتضح كل ذلك في مجريات الأحداث وذلك بشتى أنواع المقاومة إلى أن جاء تاريخ 1609 ليكون أكثر قهرا وصرامة، وأكثر تحديدا لمصيرهم المتردي ويخبرهم بين أمرين أحلاهما مرّ كما يقال فإما المنفى الاجباري وإما القتل حرقا وبأبشع الوسائل الجهنمية التي لم يشهد تاريخ البشرية أشنع منها ولا أفظع وهذا بشهادة رجال الكنيسة من بينهم وعلى وجه الخصوص الكاردينال ريشولي الفرنسي.

وقد مرت مأساة هؤلاء المغلوبين لتجرع مصيرهم المحتوم بعدة مراحل تعاقب على تنفيذها وتطوير أساليبها بعد الملكين الكاثوليكين كل من الامبراطور شارلكان (Carlos V) (كارلوس الخامس) الذي كان دوره ابتزاز كل ما تملك هذه الطائفة من أموال ومتاع مقابل التغافل على مصيرهم، لكنه ما انفك أن خلف هذا الامبراطور ابنه الملك فيليب الثاني الذي ورث المشكلة بكل خطورتها ورأى في عدم التعجيل بانهاؤها إخلال وأي إخلال بأمن البلاد ووحدة الأرض والدين، لأن في مفهومه للقضية أن هذه الطائفة وإن اعتنق بعضها المسيحية ظاهريا فانها ما تزال مستمرة على دين آباؤها وأجدادها فإذا صادف مثلا أن فرضت عليهم مراسيم طقوس الزواج المسيحية كرها وتحت مراقبة ورعاية الكنيسة فإنهم ما ينفكون يعودون الى خلواتهم لنسخ تلك المراسيم الاجبارية بمراسيم إسلامية، وإذا ما أجبروا على تعميم أبنائهم لتنصيرهم فهم لا يتوانون في

نسخ كل ذلك باقامة احتفالات سرية لختانهم وكذلك الحال مع الأسماء وبقية الشعائر الدينية الأخرى كالصلاة والصيام على وجه الخصوص. من هناك تعين على الملك فيليب الثاني بأن يسارع باتخاذ اجراءات حاسمة لوضع حدّ فاصل لمثل هذا التماذي في العصيان من قبل الأقليات المعنعة في تجاوزاتها وتمردها. فكانت مجمل قراراته هي محاولة إيجاد السبل الناجعة للقضاء المبرم على أي أثر من آثار الاسلام والعربية بين ظهرائي هؤلاء «المتنترين» والعابثين بقيم الصليب. لكن جميع الاجراءات والقرارات نجدها في آخر الأمر تبوء بالفشل الذريع وتتسبب في انتفاضات ومقاومات لم تشهد اسبانيا مثيلها وكان عليه أن ورثَ المشكلة بثقل خطورتها الى ولده ووارث عرشه الملك فيليب الثالث الذي لم يتردد هو الآخر في تفضيل الاختيار الصعب والناجع لمقاومة هذه الأقلية المتمردة التي أصبحت تشكل خطرا داخليا يهدد باستمرار الوحدة الدينية والدينيوية لسكان إسبانيا. ففكر هذه المرة وبمعية الكنيسة في خطة تريح البلاد والعباد إلى أبد الآبدين فكان قراره هو الطرد والطرده الشامل لكل مسلم عربي حتى يقطع دابرهم، وهو القرار الذي عرف حيز التنفيذ ابتداء من شهر أفريل من عام 1609، وقد سجلت لنا العديد من المصادر أحداث هذه المرحلة الطويلة وما تحتوي عليها من أسرار المتابعة والقمع والتصفيات الجسدية لطائفة المورسكيين ولم تكن وثائق جهاز محاكم التفتيش أو كتب التاريخ أو الحوليات أو المذكرات هي وحدها التي سجلت مثل هذه الأحداث الجسام بل نجد حتى الشعر والشعراء الكبار الذين يتصدرون الساحة الأدبية آنذاك في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين قد شدّ مشاعرهم مثل هذا الموضوع المأسوي، وخاصة في بعض المناطق التي عرفت شراسة في الابداء، وحدة في نوعية المقاومة، كمنطقة بلنسية لما تتطوي عليه من عمق التجذر لطائفة المورسكيين في أرجائها الفلاحية الخصبة؛ فكانت لمثل هذه الأحداث ثلاث ملاحم شعرية معاصرة لها :

الأولى : من نظم الشاعر الاسباني فاسبار أغيلار (Gaspar Aguilár)

(1561 — 1623) وعنوان ملحمته «طرد مسلمي اسبانيا من قبل
جلالة الملك دُون فيليب الثالث 1610».

الثانية : من نظم الشاعر الاسباني خُوان مندِيث دي باسكونثيلُوس
(Juan Mendez de Vasconcelos) وعنوانها «تجمع المدار من أجل طرد
المورسكيين من الممالك الاسبانية 1580 — 1612».

أما الثالثة فهي من نظم الشاعر الاسباني أيضا بيثنتي بيريث دي
كويَا (Vicente Perez de Culla) وعنوانها «طرد المورسكيين من الجبال
ومن مُويلا كُورتين من طرف سيميون ثاباتا (Simeón Zapata) البلنسي
1635».

فكما نلاحظ من تاريخ الملاحم الثلاث أن الشعارين أقيلا، وخُوان
مندِيث يعتبران كشاهدي عيان على مُجريات الأحداث وأما ثالثهما
فهو قريب العهد من تنفيذ قرار الطرد الاجباري النهائي ووثيق الصلة
بالحيط الذي تمت فيه مجريات النفي التعسفية. وبما لا شك فيه أن ذاكرة
أهالي تلك المناطق قد أسعفت الشاعر بيثنتي وجعلته يكمل هذه
الثلاثية لتتعلق دائرة الحصار التي أجبرت المورسكيين على تضييع
وفقدان كل شيء كالأرض والعرض والمال والذات...

وبالإضافة الى هذه الشواهد المعاصرة للأحداث والثابتة الصلة بموقعها
والتي تعتبر في مجملها قد تطرقت لموضوع الاجلاء الاجباري من خلفية
مسيحية موحدة النظرة والبعد إلا أنها تبقى بالرغم من كل ذلك ناقلة
للقليل من الحقائق المرة وخاصة ما يتعلق بمنها بالجانب التعسفي من قبل
مواطنيهم وسلطتهم الروحية والدينية. إلا أنه الى جانب هذه الوثائق
الشعرية الهامة هناك مجهودات أخرى أنجزها العديد من الباحثين في
موضوع طرد المورسكيين وأخص بالذكر منجزات الباحث الفرنسي في
هذا الميدان لُويس كاردِيَاك (Louis Cardillac) في كتابه «مورسكيون
ومسيحيون مُواجهة جدلية 1492 — 1610» باريس 1977 ففي
هذا الكتاب الهام نجده يشير الى وجود مخطوط من وضع مورسكي
يدعى ابراهيم طيبلي «تعرض فيه الى مشكلة طرد المورسكيين وكيفية

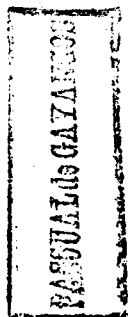
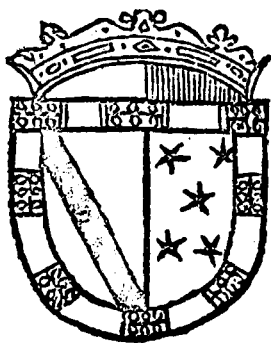
EXPULSION
DE LOS MOROS
DE ESPAÑA POR LA

S. C. R. Magestad del
Rey Don Phelipe Tercero
nuestro Señor.

*Al Excelentissimo señor Don Francisco Gomez
de Sandoual y Rojas Duque de Lerma,
Marques de Denia, Conde de
Ampudia, &c.*



POR GASPAR AGVILAR.



CON PRIVILEGIO.

En Valencia, en casa de Pedro Patricio Mey
junto a Sant Martin. 1610.

*A costa de Iusepe Ferrer mercader de libros,
delante la Diputacion.*

صورة من غلاف ملحمة الشاعر الاسباني قاسبار أفيلار التي نشرت
بمدينة بلنسية عام 1610

خروجهم من اسبانيا، وأسباب ذلك مع كل تفاصيل المحنة من خروج ورحيل وأحداث تعرضوا لها سواء بموانئ فرنسا أو بعض المرافئ الافريقية ويقول مؤلف هذا الكتاب انه وضعه شعرا ونثرا⁽²⁾ ويُعقب كاردياك بأن هذا المخطوط ما يزال محفوظا بمكتبة (Casnatense) برومة، كما يذكر بأن مؤلفه يشير في الأخير الى أنه شرع في تبيض كتاب آخر قد أنجزه ويدور حول الموضوع نفسه⁽³⁾.

ولقد تضاربت وتعارضت آراء الدارسين القدامى والمعاصرين حول موضوع الترحيل الاجباري هذا من قبل السلطة الاسبانية. فكان رأي المتعصبين أن من أجل وحدة الشعب السياسية والدينية تجوز كل وسيلة، أما آراء الأغلبية فانها كانت توافق في معظمها على عملية الطرد لكنها حَبَّذت لو كانت بأساليب أكثر مرونة.. وقد توجت هذه العملية كما نعرف بانتصار ساحق ومؤلم عام 1612 وهو انتصار على قوة مجردة من كل شيء ومن أبسط وسائل الدفاع وحيث كانت لا تملك سوى إيمانها بعقيدها وتشبيها بالأرض التي نبت منها أفرادها وقد وصل بهم الحد — وهذا بشهادة الأسقف فرنثيسكا (Francesca) — «الى أنهم بلغوا درجة من الضياع جعلتهم لا يعرفون من يكونوا أهم مسلمون أم مسيحيون؟»، لكن الأسقف خوان بابتيستا بيرث (Juan Baptista Pérez) كان أكثر وضوحا في تحيزه العدائي ضد هذه الأقلية فكان يقول «انه لأقل خطرا أن يكونوا مسلمين هنالك على أن يبقوا وهم نصارى باسبانيا». وفي آخر مطاف المأساة نجد المصادر تحدثنا عن ترحيل ثلاث مائة الف مورسكي (300.000) كانوا يشكلون في معظمهم يدا عاملة رخيصة الثمن، ونشيطة المردود ومحترفة لأرق الصنائع وعلى وجه الخصوص الفلاحية منها لذا كان لخروجهم أثر فعال على الاقتصاد الاسباني وقد أقر بهذه الحقيقة عدد كبير من الدارسين سيأتي ذكر بعضهم في سياق الحديث.

— Cardaillac : **Morisques et Chrétiens.. pp. 194-197.**

(2) انظر

— Cardaillac : **Morisques et Chrétiens.. p. 196**

(3) انظر

الملاحم الشعرية كشاهد عيان على مأساة الترحيل

اما اذا نحن رجعنا الى محتوى الملحمتين المعاصرتين لأحداث الترحيل فإننا نجدهما يُوقفاننا على مدى ضخامة ذاك الحدث، وصعوبة الاقدام على تنفيذه، كما يظهران لنا مدى جدية الملك فيليب الثالث في قراراته واختياراته الموفقة لاعوانه الذين يتمتعون بما فيه الكفاية للاعتماد عليهم حتى لا تتعرض قراراته الى أي تحسُّب أو ردّ فعل يذكر. فقد قرر الملك بمحضر أعوانه المقربين من وزراء وقادة، وكبار مسؤولي محاكم التفتيش في مجمع ملكي مضيق جدا أحيط بسرية تامة لأن المسألة في نظرهم ليست هينة بل تتعدى خطورتها ما يتوجب الاحتياط حتى لا تقع أي هزة بين الطائفتين المتجاورتين والمتعاديتين. فقد وضع الملك في حسبانته ما يمكن أن ينجر عن هذا القرار من احتجاج قد يتقدم به بعض النبلاء الاقطاعيين والمستفيدين المباشرين من تلك اليد العاملة المورسكية الرخيصة الأجرة، وخاصة أن القرار يقترب من موسم جني المحاصيل الفلاحية.

كما كان واثقا من أن إذاعة مثل هذا القرار في أوساط المورسكيين لا يمكن أن يمرّ بسلام دون أن يشهد ردود فعل قد تتحول الى مقاومة شعبية متراصة الصفوف وتكون حافزا لجمع شمل الأقليات المورسكية في مختلف مقاطعات المملكة.

لقد كان المجمع الملكي الأعلى على يقين من كل هذه الاحتمالات لذا نجده يقرر أن تتخذ التدابير التالية لتفادي أي خطر ممكن، فكانت الأوامر صارمة، وكان في مقدمتها الاجماع على أن يظل قرار الطرد طي الكتمان في حين يتعين الاسراع في تجهيز الوسائل التي سيتم بموجبها نقل المورسكيين الى الضفة الأخرى، فتمت كل المشاورات فيما يتعلق بالسبل الآمنة، والسفن اللازمة وما الى ذلك من الاجراءات، كما كان من الضروري أن يستدعي لمثل هذه المهمة الصعبة كل الأساطيل البحرية الاسبانية المرابطة بالشواطىء البعيدة كإيطاليا وغيرها، كذلك اتخذت التدابير الوقائية المستعجلة كتسليح كل مواطني منطقة بلنسية تحسبا

لأي مواجهة قد تنفجر وذلك لما لهذه المنطقة من وضع خاص نظرا لمخاداتها الى الخطر التركي العثماني المرابط بحوض البحر الأبيض المتوسط والمتمثل فيما أطلقوا عليه شغب أعمال القراصنة. وكان الاتفاق هو أن يتم الاعلان عن قرار المجلس الملكي بالتوازي مع الشروع في عملية الترحيل. وقد أجمعت المصادر التاريخية والأدبية على ربط نجاح هذه المهمة بمدى احترام كل التدابير التي اتخذت، ونظرا للسرية الضيقة جدا التي حظي بها مثل هذا القرار فاننا نجد الملك لا يجبر البابا به إلا بعد خمسة أشهر تحسبا لأي خطر قد تتعرض اليه المراسلة وهو ما تؤكد المصادر في هذا النص الصريح الذي يقول : «ولم يستطع جلالته اشعار قدااسة البابا بالخبر ولا حتى سفيره هناك الى غاية الثالث من شهر سبتمبر من عام 1609 لأنه ربما انجر عن ذلك خطر كبير يؤدي الى فشل الخطة المتخذة لتنفيذ المهمة»⁽⁴⁾ كذلك وصل مثل هذا الاشعار الخطير متأخرا الى كل من القائدين أفوستين دي ميخيا (Agustin de Mejía) وبيدرو دي توليدو (Pedro de Toledo)، فالأول أوكلت له مهمة الاشراف على عملية الترحيل والثاني عهدوا له بمهمة الحراسة البحرية. كما وصل مثل هذا الاشعار متأخرا ومفاجئا لحاكم مقاطعة بلنسية وهو آنذاك لويس دي كريبو دي توليدو (Luis de Carrillo de Toledo)، والى الأسقف خوان ريبيرا (Juan Ribera) اللذان أطلعا على فحوى القرار وأمرنا بكتاناه الى غاية موعده التنفيذ، وقد بلغهما مثل هذا الاشعار كما تقول المصادر في أواخر شهر أوت من عام 1609⁽⁵⁾ كما أخبرا بتاريخ موعده إشعار رؤساء المورسكيين في وقت لاحق مع الاحتفاظ بسريته التامة.

وبعد هذه التدابير السرية أعطيت الإشارة للشروع في تجهيز التدابير الأمنية فكان في مقدمتها اقتناع المملكة بالقضاء الأولي على أي خطر يحوم في أرجاء البحر فأوكلت هذه المهمة لقرصانين شهيرين من لصوص

— Boronat : Los Moriscos Españoles, col 1, p. 181

(4) انظر

— Boronat : Los Moriscos Españoles, col 1, p. 159

(5) انظر

البحر ألا وهما سيميون دي أنثير (Simeón de Ancer) وهو من أصل صاخوني ودوارتي (Duarte)، بالإضافة إلى الأسطول البحري الملكي الذي استدعي من المحيط الشمالي بقطعه الثمانية عشرة تحت رئاسة لويس فارخاردو (Luis Farjardo) فاجتاز بحر الزقاق من توه متوجها إلى المرسى الكبير بوهران، وبعد عمليات استطلاعية ومناوشات خفيفة مع بعض القراصنة المنتشرين في عرض البحر تمكنت القوات الأسبانية من تأمين الأجواء وتطهير المحيط وكان موعد لقائها في آخر المطاف هو شواطئ بلنسية فوضعت كل القوات تحت إمرة القائد المتقاعد والخبير بشؤون الحرب الأدميرال أفوستين ميخيا (Agustin Mejía). وقد نوهت الملاحم ببطولات هذا القائد ورفعت من شأنه خاصة فيما سجله في تاريخه الحربي بالأراضي المنخفضة، وفرنسا، وفضلا عن كل ذلك فهو من المسيحيين القدامى. وتضيف ملاحم كل من أفوستين وباسكونثيلوس فتجعله أكثر بطولة من حنبلع ويومبي، إنه البطل الذي يضاف إلى سجل الأساطير اسمه والذي سيتولى القضاء على آخر حرب صليبية. وفي هذا الخضم الهائل من التدابير نجد المورسكيين لا يعلمون شيئا عما يدبر ضدهم في الخفاء ولا يعلمون سوى بما يُحاك ضدهم من مضايقات تقليدية معروفة.

وبالإضافة إلى هذه الحشود نجد حاكم بلنسية يعمد إلى تعيين اثنين وثلاثين شخصية أمنية كمحافظين للشرطة مهمتهم قيادة المورسكيين إلى غاية المراسي الثلاث التي عيّنت لركوبهم وذلك بزعم حمايتهم من أي خرق قد يصيبهم من قبل المسيحيين. كما تم كذلك تعيين أربعة محافظين سامين وهم على التوالي بلتزار ميركدار (Baltazar Mercader) وبيدرو اسكريبا (Pedro Escriba) وهما من فرسان الصليب المقدس وكذلك خوفري دي بلانيس (Jofre de Blanes) وحاكم دانية كريستوبال سيدنيو (Cristobal Sedeño) الذين أوكلت لهم مهمة الوقوف عند بوابات المراسي للاشراف على عملية ركوب وإحصاء المورسكيين»⁽⁶⁾

— Jaime Bleda : Crónica de los Moros de España, Ed. Valencia - Felipe, (6) Mey 1618, p. 587.

فتحولت بلنسية بكل هذه الحشود الهائلة من الرجال والعتاد والحركة الدائمة الى جوٍّ يُوحى بانذار خطير اندهشت له العامة من مسيحيين ومورسكيين لأن الاعلان عن الغاية من هذا التجمع لم يعلن عنه بعد.

إلا أن المؤرخين أمثال بليدا (Bleda) وبروناظ (Boronat) وكذلك الشعراء فإنهم لم يخفوا في تحليلاتهم للأحداث تشخيص السبب المباشر لهذا التأهب غير العادي، وربما كانت كل الأنظار تشير الى المورسكيين كهدف معنيٍّ بهذا الهرج. أما الرأي العام والمقصود به هنا عامة المسيحيين من الطبقة المتوسطة والفقيرة والتي غالبا ما يقع بينها وبين المورسكيين تصادم مستمرٍّ بحكم الجوار والتنافس لافتكاك مناصب الشغل الأمر الذي أدى بهذه الطبقة الى تزايد حقدِها على المورسكيين وكانت ترى في الوجود المورسكي منافسا خطيرا يقطع عليها أبواب الرزق الذي أجمعت المصادر التاريخية على أن النبلاء المسيحيين «الذين يملكون في حوزتهم مجموعة من الخدم المسيحيين والمورسكيين كانوا دائما يفضلون اليد العاملة المورسكية لكونها ترضى بالقليل وفي الوقت نفسه أكثر حيوية في اتقان العمل، ولما يجْدُ النبلاء أنفسهم أمام اختيار بين العمال فإنهم لا يترددون في تفضيل الجانب المورسكي حتى ولو على حساب مسيحي قديم» الأمر الذي أوقد نار الحقد في صدور هذه الطبقة وصارت دائمة التربص بالمورسكيين مما جعل حاكم بلنسية يصدر قرارا مفاده «أن هناك عقوبات صارمة ستلحق أولئك الذين يتعرضون للمورسكيين بالأذى سواء كان مشافهة أو ممارسة» (7).

فالنبلاء المسيحيون ما انفكوا يعربون عن استيائهم الى حاكم بلنسية لا شيء سوى لكون ممتلكاتهم أصبحت مهددة بمثل هذه التصرفات المشينة من قبل الطبقة العامة المسيحية التي تُضايق باستمرار عمالهم من المورسكيين.

ويجب أن ندرك أنه من خلال المصادر التاريخية التي اهتمت بتلك

— Boronat : Los Moriscos Españoles, col 1, p. 182

(7) انظر

الحقبة فاننا نجدها تطلعننا على بعض الخفايا الهامة التي تشد أمثال هؤلاء النبلاء الى طبقة المورسكيين فعلى سبيل المثال «فإن حاكم بلنسية ذاته كان في حوزته وتحت رحمته خمسمائة وثمانية وستين (568) عائلة مورسكية تقوم على خدمة ممتلكاته في حين نجد في المقابل ثمانية أسر من المسيحيين القدامى الى جانبهم، أما دوق غانديا فكان في حوزته ألفان وأربعمائة وتسعة وأربعون (2449) أسرة مورسكية مقابل ألف وتسعمائة واثنتين وسبعين أسرة مسيحية (1972)... كذلك دون كاردونه فإنه كان يمتلك ألفا وسبعمائة وثمانية وستين (1768) أسرة مورسكية مقابل مائتين واثنتين وعشرين (222) أسرة مسيحية»⁽⁸⁾.

فأمثال هؤلاء النبلاء الذين أصبح يعينهم مباشرة مصير المورسكيين فإن استيائهم لم يخف على العام والخاص علما أن مثل هذا التهديد المستمر للاقتصاد الاسباني طيلة القرن السادس عشر ظل قائما ومحل جدل طويل. فقد ظهر في معارضة منظمة من قبل النبلاء عام 1510 وتمكنوا من اقناع الملك الكاثوليكي آنذاك فرناندو دي أراغون من إصدار مرسوم ملكي يعني بموجبه مورسكيي منطقتي بلنسية وأراغون من التصير الاجباري الذي يمارسه رجال الدين ضدهم وذلك مقابل الاحتفاظ بهم كيدٍ شغيلة نشطة».

إلا أن حاكم بلنسية وإن كان يعنيه مستقبل المورسكيين فإنه احتفظ بسرية قرار التهجير الى غاية الواحد والعشرين (21) من شهر سبتمبر من عام 1609 مما جعل بث مثل هذا القرار يحفز النبلاء على الاقدام على مفاتحة الملك مباشرة في هذا الشأن، فعينوا لهذه المهمة سفيرين من النبلاء هما على التوالي فيليبي دي بويل (Felipe de Boyl) وخوان برنقير (Juan Berenger) وذلك قصد اقناع الملك بالتراجع عن مثل هذا القرار الخطير في حق المردود الاقتصادي... وقد أشار الشاعر أغيلار (Aguilar) في ملحمة الى هذا المسعى في هذه المقطوعة التي نترجمها كالآتي :

... لو يغادر المورسكيون فجأة

ستبقى المملكة ضائعة وفقيرة

لأن كل تجارة القوم

بأيديهم يُدار أمرها(9)...

وتتفق المصادر التاريخية فيما بينها حول فحوى هذه الشكوى إلا أنها لم تحظ باستجابة الملك وتقرر بعدها المصير المحتوم للمورسكيين الذين حدّد لهم تاريخ الثاني والعشرين (22) من شهر سبتمبر عام 1609 كموعّد لاجلائهم، كما تقرر أن تتمّ عملية الترحيل في بحر ثلاثة أيام، واشترط على كل فرد أن لا يتجاوز حمولة اليد ويترك بقية ممتلكاته ومتاعه لساداته النبلاء المسيحيين الذين كان مرتبطا بهم اجتماعيا، فكان هذا القرار بمثابة الترضية لأولئك النبلاء الذين تكتلوا ضد القرار وأظهروا استياءهم، فلما رأوا أن مساعيهم قد أثمرت من حيث لا يتوقعون ورزقوا بمحاصيل جديدة تناقلوا في احتجاجاتهم ونظروا الى العملية كقدر سماوي، بل نجد بعضهم لم يخف تهليله وإن جاء متأخرا لأن الملاحم الشعرية لم تترك مثل هذا الشعور المناق مغمورا، فقد فضحوا نوايا هؤلاء السفهاء بصريح اللفظ دون التلميح كما ورد ذلك على وجه الخصوص في ملحمة أفيلاز المقطوعة السابعة والعشرين (27). وقد زاد من فرحتهم صريح القرار المرافق الذي حذر المورسكيين من مغبة اخفاء أي شيء أو حرقه أو إتلاف للمحاصيل؛ فكانت الرقابة جدّ متيقظة وصارمة مع المتهاونين بأمر القرار. وبما أن مدة الانذار بالرحيل قد تزامنت مع موعد الرحيل فقد أدى مثل هذا التعجيل الى إرباك المورسكيين ولجؤهم السريع إلى التخلص من ممتلكاتهم بشتى وسائل أنواع البيع، مما أدّى بالمبيعات أن تعرف انخفاضاً في الأسعار تجاوز نسبة التسعين بالمائة 90% الأمر الذي أدى بالسوق أن تعرف مضاربات تسببت في خلق

(9) انظر ملحمة (9) Gaspar Aguilar : *Expulsion de los Moros de España por la S.C.R. Magestad el rey Don Felipe tercero (III) nuestro señor*. Ed. Valencia, en Casa de Pedro Pátricio Mey junto a Santa Maria, Valencia, 1610, p. 24.



N tanto, que del Reyno de Valencia

salir los Moros por su gusto emprenden,

y con grande cuydado y diligencia vnos dan, otros truecan, otros venden.

En tanto que obedecen la sentencia, de tal manera, que a ninguno ofenden; y si alguna vez pierden el decoro, es con aquellos que les ciega el oro.

En

Pues si salen los Moros de repente queda el Reyno perdido y miserable, porque todo el commercio de la gente con ellos tiene trauazon notable. Mas si esto no conuiene que se intente, por no dar gusto al Moro abominable, no se hable dello mas, queden suspensos frutos, obligaciones, rentas, censos. 77.

Dixo, y con general aplauso y gusto de todos fue admirado este consejo: quisieronle imbiar como era justo, y dexo de aceptallo por ser viejo: Fueron nombrados por su pecho augusto y por ser qualquier dellos vn espejo de su admirada y temerosa tierra. Don Felipe Buyl, Don Iuan Vallterra.

وضع اقتصادي فظيع جعل حاكم بلنسية يُرِدِف قرارا ثانيا ومفاجئا في فاتح أكتوبر من عام 1609 يمنح المورسكيين حرية حمل نصف ممتلكاتهم من المتاع وذلك لامتناس الفيضان الذي أغرق الأسواق وتسبب في كساد أنواع تجارية أخرى. لكن مثل هذه التدابير لم تحل اشكالية المضاربات فراحت السلطة تعلن عن قرار آخر يسمح لسته بالمائة من المورسكيين بالبقاء إلا أن هذا القرار الاستثنائي ما انفك أن ألغى في التاسع (9) من شهر يناير من عام 1610 الأمر الذي جعل الفرحة تعم الأوساط المسيحية على اختلاف مستوياتها الطبقية وكما تذكر الملاحم أيضا أن مثل هذه العملية لا يمكن أن تُقاس إلا بتلك المعجزات السماوية، فهللت الحناجر بالشكر والحمد وغصت الكنائس بدوي الأجراس ورفعت الصلبان فوق كل مرتفع، ولم تقف الفرحة عند هذه الحدود بل تجاوزت الى إقامة احتفالات عارمة خرقت حدود الوعي حتى تسببت في فضائح ومخالفات أدت برجال الأمن الى المسارعة باقامة الحدود على المتهورين. وكان مثل هذا الخلاص بالنسبة لهم هو ضرب من العناية الالهية التي ما انفكت الكنيسة تبشرهم وتوعدهم بحلولا عليهم لا محالة.

مُجريات أحداث الترحيل الاجباري حسب رصد الشعر الملحمي لها

لقد بدأت عملية الجلاء بمشاهد أقل ما يقال عنها أنها جد محزنة ومأساوية، أودية من البشر من مختلف الأصناف، فقراء وأغنياء علماء وجهلة، نساء ورجالا أطفالا وبناتا، شيوخا وعجائز يحف الجميع أنين ودوي جعل الشعراء يطلقون عليه أوصافا مجازية متعددة الأبعاد كالقطعان التائهة مثلا أو أزيز النحل، إنها مسيرة محتومة يحيطها جو من الرعب والحقد لوجوه كالحة تلتظ حقا وكرامية وتنتظر بفارغ الصبر لحظة الخلاص من هذا الخطر المتشبت باسبانيا، الأرض التي يغادرونها مكرهين في ظروف عدائية بعد تسعة قرون عددا من الحضور المشرق والعتاء المستمر التجدد.. إنها ساعات الآفة لكن الى أين؟ ولماذا؟ وكيف السبيل؟ ومتى موعد الاستقرار؟ تساؤلات ينتظرها البحر لتلفظها

شطآنه على إثر طبي أشرعة مراكب التهجير... إنها مسيرة متعبة ومكحلة بالعذاب حيث لم يسمح لهم فيها بأبسط الوسائل للنقل، وكل ما يرغب فيه الفرد عليه أن يتجشم معاناته على ظهره وله أن يختار بين المتاع والولد لأنه لا مجال للانتظار ومد يد المساعدة. تعب يرهقه تعب آخر أوقف شاعر الملحمة مندith ليعبر عن أوجاع المصير بهذا الوصف :

هجرة مضنية، أمر فظيع
مشحنة بالمبهم، أحزان. ثقيلة
في غمرتها ينفد الصبر
وترتعش لها آلام الروح العدوّة... (10)

ويفهم الشاعر أقيلا في ملحمة

... شيخ يجر طفلا بيده
وآخر تلفه أمه على صدرها
وفتى آخر كذاك الطرّوادي
قد حمل والده على ظهره (11)

وقد عمد الشاعران الى استخلاص صورهم الفنية من الأجواء الملحمية، ولم يجدوا مثيلا لمثل هذا الخروج المهل سوى تلك المشاهد التي عرفتها مدينة طروادة الأسطورية حيث خرج المنهزمون تجاه المنفى الاجباري تاركين وراءهم الدمار وقاصدين في مسيرتهم بوابات المجهول ذاك هو المشهد الذي جعل شاعرا كمنديث دي باسكونثيلوس يوقفه منظر امرأة وقد حملت على صدرها طفلين وعلى ظهرها كذلك دون أن تتحرر يداها من طفلين آخرين (12) كما ركز الشاعر على تصوير ذاك

(10) انظر ملحمة Liga deshecha por la expulsión de los Moriscos de Los reynos de España, Ed. Por Alonso Martin año 1612 Madrid, p. 44.

— G. Aguilar : Expulsion..., p. 42.

(11) انظر ملحمة

— J.M. de Vasconcelos Liga.. folio n° 43,

(12) انظر ملحمة

الرحام بين الغرباء المتوجهين الى المنفى انهم يسرعون وكلهم يريد أن يكون في مقدمة المسيرة. وقد تمت مجريات الترحيل حسب رأي المؤرخ الفرنسي هنري لابييري (Henri Lapeyre) في كتابه «جغرافية اسبانيا المورسكية» كالتالي : «كانت قافلة ذانية التي انطلقت في البداية تحت إمرة ماركيز سانتا كروث الذي تكفل بترحيل سكان ضياع قانديا التي هي من ممتلكات الدوق الذي تحمل نفس اسمه والذي يعد من أكبر نبلاء المملكة، وكان من حظ هذه القافلة أن تجتاز مسافة جد قصيرة حيث تم شحنهم على متن سفن بحسب التواريخ المتوالية؛ اذ انطلقت البداية يوم 30 سبتمبر وتعاقبت في اليومين المواليين من شهر أكتوبر على متن سبعة عشر يختا نابوليا فكان عدد الحمولة 3.803 نفرا، كما تم الترحيل أيضا على متن بعض السفن التجارية كانت حمولتها 1.536 نفرا. أما انطلاق هذه القوافل فكان في يوم 2 أكتوبر مع سقوط الليل وأدركت السفن مرسى وهران في اليوم الخامس من شهر أكتوبر»⁽¹³⁾.

وقد أشادت ملحمة أفيلاز (Aguilar) بمجهودات دوق قانديا المستفيد المباشر من هذه العملية، حيث كما ذكرنا أن كل ممتلكات هذه المجموعة الهائلة من المرحلين قد ضُمت الى ملكيته وذلك بقرار ملكي، وليس ذلك بغريب أن ينعته الشاعر بهذا الوصف الذي ينم عن راحة باله قائلا :

... لم ينعم مطلقا براحة أو هَوَاة
حتى أقلع كل من كان تحت إمرته⁽¹⁴⁾

وبعد خروج المورسكيين من منطقة ذانية توالى الترحيلات المستعجلة من مختلف الموانئ الأخرى كميناء بلنسية القاعدة الأساسية وميناء ألكنت وغيرهما؛ والملاحظ على هذه العملية الأولى أنها اتسمت بصرامة التنظيم والسرعة في التنفيذ مما جعل المملكة تجند الى جانب

(13) انظر — Henri Lapeyre : *Géographie de l'Espagne Morisque*, Paris, S.E.V.P.E.N. 1955, p. 55.

(14) انظر ملحمة — G. Aguilar : *Expulsion...* p. 42.

أسطولها سفنا تجارية لبعض الأجانب. وقد ورد في إحدى إشارات المؤرخ الاسباني الشهير دُومِنْغُو أورتِيث (Dominguez Ortiz) «بان الذين استقلوا السفن التابعة للأسطول الملكي كانت رحلتهم حسنة المعاملة وأما الذين ركبو السفن التجارية للخوِاص فقد لقوا من سوء المعاملة الكثير مع سوء نية ربانها»⁽¹⁵⁾. وقد أشارت بعض المراجع الأخرى وكذلك القصائد الملحمية ومنها على وجه الخصوص ملحمة منديث دي باسكونثيلوس (Mendez de vasconcelos) الى سوء الاستقبال الذي حظي به هؤلاء المطرودين أثناء نزولهم بمدينة تلمسان حيث تعرضوا الى سطو ونهب العامة الذين أمعنوا في إهانتهم والاستحواذ على ما يملكون غصبا مما جعل حالهم يزداد سوءا الأمر الذي دفع بالذين ينتظرون حظهم من الرحيل يبلغهم ما يترصص بهم عند الوصول سواء الى تلمسان أو وهران أو الجزائر فولد فيهم الشعور برغبة التشبث بالمصير المعيشي فبدأت تظهر علامات محاولاتهم لرفض اجراءات الترحيل مما أدى بهم الى الدخول في مطب جديد اتسم بالمعارضة والمقاومة وهو ما سيأتي ذكره فيما بعد. لذا لم يخف على شاعر كمنديث دي باسكونثيلوس مثل هذا الاحساس الجديد والرغبة في التمرد حيث كانت نية المورسكيين الميَّنة هي المقاومة :

... المحاولة بالسلاح والعنف والحرب

التشبث بالأرض والدفاع عن الوطن

وهكذا يلاحظ أن غالبية المؤرخين الذين عاصروا الأحداث وكذلك الشعراء يقرون ضمنيا بانتهاء هؤلاء الى الأرض الاسبانية، كما يعترفون بمواطنتهم وأنه لا أرض لهم سواها.

من هذا التوتر الجديد انفجرت شرارتان للمقاومة الشعبية المورسكية ضد النظام الملكي الاسباني المسيحي، رافضة قرار الترحيل التعسفي

(15) انظر، Antonio Dominguez Órtíz : *Felipe II y los Moriscos*. Ed. M.E.A.H., Granada 1959, p. 182.

Liga deshecha.

55

Parte el Morisco vando confiado,
Con otros muchos que llegado auian,
Sin auerse de aquel mal rezelido,
q̄ en sus pechos los otros ya sentian:
Vn valle caminando, y verde prado,
Por la cuesta de vn monte se subian,
El qual tras puestas, al p̄nto hueluē lue-
Todos los Mores al passado juego (go
Aqui ya el daño fue con mayor pena,
Pues las niñas, muchachas, y dozellas
Con lo que el torpe vicio desordena,
A la vista de todos gozan dellas:
Qual es la ones v̄ como en cadena,
Teniendo diez y doze las mas bellas,
Adonde la que es fea no descansa,
Que aun a las tales este daño cansa:
sufren mal este caso los Moriscos,
Que es en negocio tal gente zelosa,
Los arboles desgajan y lentiscos,
Con semblante de furia belicosa:
Quebrá las peñas y assentados riscos
De aquella aspera sierra peñascosa,
Cuyas piedras la honda rezo tira,
Con que el Moro del d̄o se libra

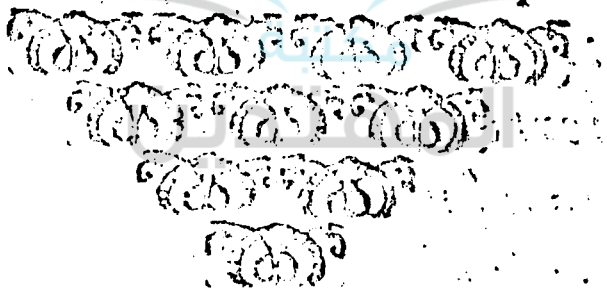
نماذج شعرية من ملحمة الشاعر الاسباني خوان ميديث دي باسكونثيلوس

المنشورة بمديريد 1612

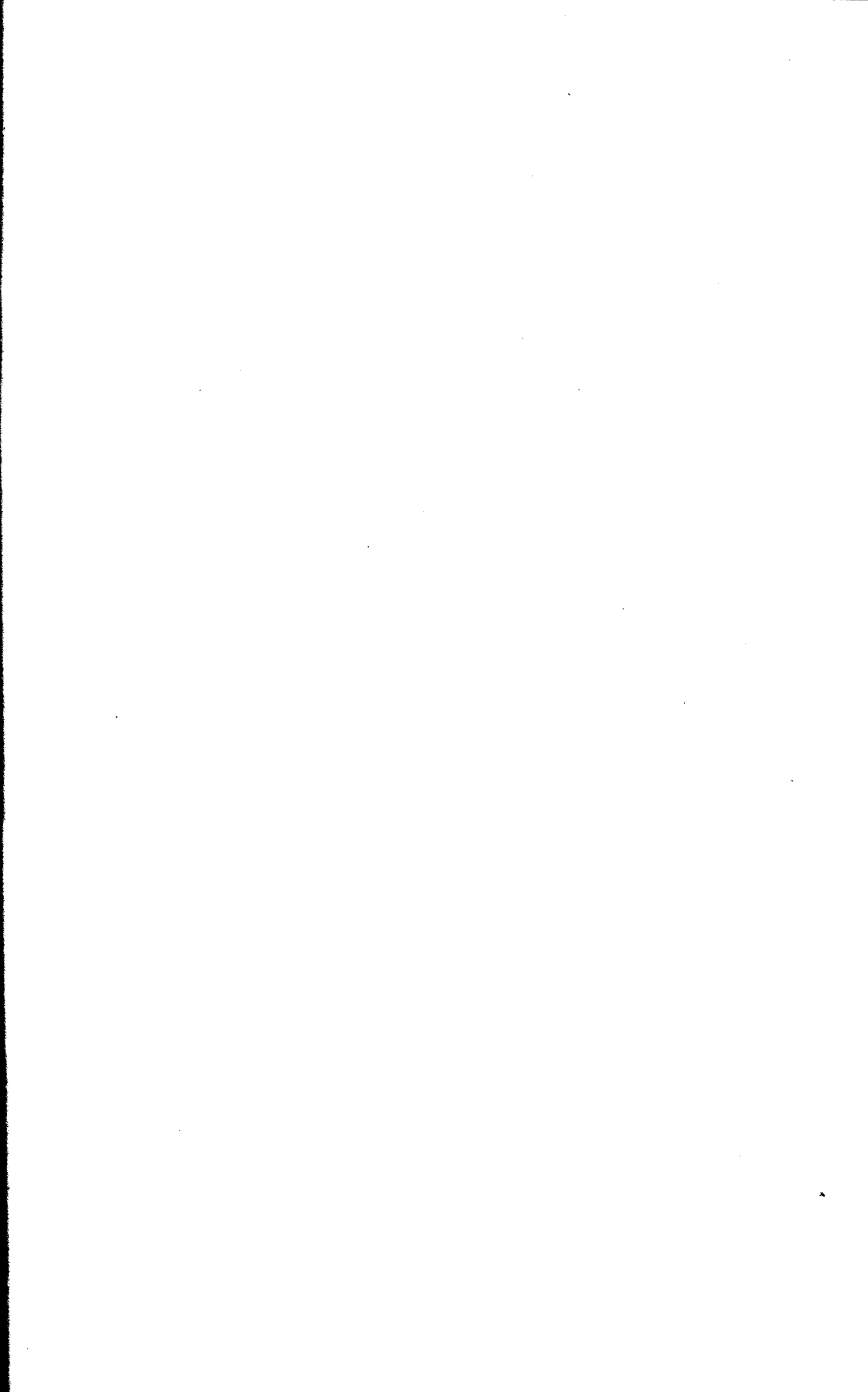
Liga deshechos.

56

Perfida canalla fementida,
Ingrata turba, desleal y auara,
De quien la Magestad santa ofendida
Ha sido sin razon de verdad clara:
Pues aqui pegareys gente atreuida,
A las manos de aquesta plebe ignara,
Vuestras apostasias, mal, y daños (nos
Cótra aquel q̄ os aguarda ha tantos a-
las manos de aquesta gente infame
De la misma nacion y obscura seta,
Quiere q̄ vuestra sangre se derrame,
Aquel diuino Rey sumo Profeta:
Aqui la ingrata voz suspire y clame,
Con rigor de justicia santa y reta,
No halle amparo, ni camino cierto
Quié negó la verdad del viuo puerto.



واشتعلتا بجبال بلنسية فكانتا من أعنف وأخصب المقاومات الشعبية
التي عرفها تاريخ القرن السادس عشر الميلادي.



الفصل الثالث

- ~ انقضاة الموركيين بجمال بلنسية حسب
رصد الشعر الماحي لضاروتها ونشائجها
- ~ انقضاة الموركيين بجمال مويلا دي كورتيس
- ~ انقضاة الموركيين بجمال لاغوار



انتفاضة المورسكيين بجبال بلنسية حسب رصد الشعر الملحمي لضراوتها ونتائجها

لعل الدافع الرئيسي للانتفاضتين يكمن في عمق إحساس المورسكي تجاه أرضه ووطنه الذي فرضت عليه سياط القهر والتعسف مغادرتها وقطع أواصر انتمائه بها؛ إنها محاولة اجتثاث بالقوة لقلع ما تبقى من ثمالة حضارة دُكت وانهدت وعفى عليها الزمن الذي لا يرحم فغادرت وراءها شردمة مسحوقة بين عدو متربص ومضير مجهول؛ إلا أن هذه الشردمة أرادت أن تراهن بآخر نفس لذا كان عليها أن تختار الطريق الصعب، طريق المواجهة ورفض الأمر الواقع؛ ولم يكن مثل هذا الخيار هو الأول من نوعه في سجل تاريخ المورسكيين بل نجدهم منذ عام 1510 تنطلق عواصف تمردهم وتتوالى احتجاجاتهم الساخطة متعالية في كل منطقة عرفت حضورهم سواء كان في شمال شبه الجزيرة الايبيرية بمناطق كأراغون وقشتالة أو بجنوبها في جبال البشارات بضواحي غرناطة والتي شهدت أعنف المقاومات المسلحة مما جعل مثل هذه الهزات تزيد في عمر الوجود العربي الاسلامي ليمتد على طول الأعوام الرابطة بين تاريخ 1492 وهو تاريخ تسليم غرناطة الى غاية 1612 وهو تاريخ خروج آخر البقايا العربية الاسلامية من أرض الأندلس المغلوبة. فطيلة هذه الحقبة كان لسان حال المورسكيين هو المقاومات الشعبية المسلحة والمنظمة

والمدرية كلسان حال ناطق في وجه زبانية محاكم التفتيش الذين كانوا الخصم والحكم في الوقت نفسه، وكانوا الأوصياء باسم الأب والابن وروح القدس وباسم قداسة البابا الصليبي الذي ما انفك يزيد الطين بلة لإذكاء حمية التعصب والحق.

لقد عجزت الوسائل القمعية على إخماد صوت هذه الأقلية، وأشربت قلوب أعدائهم غيظا وحقدا فما زادهم هذا الاحساس سوى إصرارا على مواصلة القطيعة واحتدام التطاحن والتجافي ولم توجد بين الطائفتين من روابط اللقاء ما يجعل التفكير ولو نظريا في إيجاد وسيلة للتفاهم أو التعايش؛ فالطرف المسيحي كان حاسما في مثل هذا الاجراء وقرارهم النهائي ظل يكمن في رغبة اجتثاث هذه التبتة من عروقها كي تتطهر منها تربة المسيح والعدراء لأنها فضيلة من البشرية غير متجانسة معهم ولا يمكن أن تتقاسم معهم الآمال والمآسي؛ ولا يمكن أن تكون متضامنة معهم لا في الشدة ولا في الرخاء ذاك هو قرارهم الأول والأخير الذي سيتضح ميدانيا في قرارات التهجير القاسية.

لقد صار فتيل الثورة على مقربة من عود الثقب وقد تجاوزت مرحلة حرب الكلام وأصبحت النفوس تتقد لتفضي بما في مكوناتها من ألم وانسحاق فجاءت أحداث الترحيل لتكون ذريعة لاعتلاء مراقي النسور كملجأ لاعلان الرفض والتحدّي للقدر الذي أبقى إلا أن يكون محتوما أمام طريق المجاهدين المورسكين.

فأولى الثورتين انطلقت من جبال مويلادي كورتيس الممنعة بوعورتها مما جعل منديث دي باسكونثيلوس ينعتها بوصف يذكرنا بوصف النابغة لبيوته المنيعة من صولة النعمان (1) فيقول منديث في ملحمته :

... إنه لجبل منيع

بشكله المستدير المجرد من أي انحناء

(1) يقول الشاعر الجاهلي النابغة الذبياني مخاطبا النعمان بن المنذر :

وحلت يسنوني في يفاع مُمنع تخال به راعي الحملوة طائرا
تزل الوعول العُصم عن شرفاته ويضحى ذراه بالسحاب كؤافرا

صعب على الرؤية اختراقه(2)..

فهذه المنطقة الجبلية التي احتضنت الثوار المورسكيين يظهر أنها لم تكن الصدفة هي التي رمت بهم في أحضانها، فحسب بعض المراجع التاريخية فإن جبال كورتيس كانت قد آوت محاولتين للانتفاضة جربها المورسكيون فأولاهما كانت في 20 من شهر أكتوبر عام 1609 لكنها ما لبثت ان قمعت بمجابهة شرسة مما جعلها تفرق الجموع العائدة بهذه الجبال. أما ثانية المحاولات التمردية فقد أعلنها قرابة الثلاثين مجاهدا من المورسكيين الأشداء بتعبير الملاحم واستطاعوا مجابهة القوات الملكية وأعوانها من المتطوعين والقناصين المحترفين لمدة سنتين كاملتين الى غاية 1611.

انتفاضة المورسكيين بجبال مُويلا دي كورتيس (Muela de Cortes)

تقول المصادر إن الانتفاضة التي شنها المجاهدون المورسكيون بجبال كورتيس كانت قد اندلعت على إثر تجمع مورسكي سلمى توافد من عدّة مناطق للاحتجاج على قرار الطرد وللأسباب التي انجرت عنه كمخاطر الاستقبال بالصفة الأخرى والتي تقرها المصادر العربية هي الأخرى كفتح الطيب للمقري مثلا. فقد ضمّ هذا التجمع الهائل قرابة ستة آلاف مجاهد مدجّجين بالسلاح ومهيئين للدفاع عن كرامتهم تحت قيادة رجل انتخبوه من بينهم يُدعى بيثتي توريجي (Vicente Turiji) كما يذكر المؤرخ الفرنسي هنري لايري (Henri Lapeyre) في كتابه جغرافية اسبانيا المورسكية»(3).

فقد تجهز هؤلاء بالمؤن والسلاح اللازمين ونصبوا مواقعهم محاذية لجرى نهر شقر الذي كثيرا ما تغنى بجماله الشاعر الجّان الأندلسي ابن خفاجة في عصور الهناء.

فكان لهذا التحرك أثره المفرع في جنب المملكة وفي حرم الكنائس

— J.M. de Vasconcelos : Liga.. folio n° 29

—H. Lapeyre : Géographie de l'Espagne, p. 67

(2) انظر ملحمة

(3) انظر

فقد تجاوزت على إثره صفارات الانذار وبوقات الدعايات المغرضة واستدعي على الفور قطاع لومبرديا ومختلف المتطوعين والقناصين من قرى مجاورة كشاطبة والجزيرة وغيرهما...

أما القوات النظامية فكانت تحت قيادة المركز بيدرو دي طوليدو (Pedro De Toledo) الذي انطلق بمجموعة من فوره الى مواقع الثوار وشرع في تنفيذ خطته الوقائية فطوّق المنطقة قصد عزلها عما جاورها قصد ضمان عدم التكاثر وغلق أبواب المون، وبعدها طلب من المعتصمين بالجبال التفاوض فرد عليه المورسكيون فوراً بقرار مفاده تعيين لجنة من المفاوضين من الطرفين وكذلك المكان الذي من الشروط أن يكون بمعزل عن أي خطر. فاستجاب الطرفان لخطة التفاوض وعينوا اثني عشر عريفاً للقيام بهذا الأمر حيث تولى الحديث باسم السلطة الملكية ستة أشخاص من بينهم من يُجيد اللغتين وكذلك الحال بالنسبة للمجاهدين المورسكيين وانطلقت المحادثات لمدة ثلاثة أيام متوالية دون أن تسفر أي نتيجة تُرضي الطرفين وذلك نظراً لتشعب كل طرف بمواقفه وفرض ما لديه من اقتراحات على الطرف الآخر.

أما نقطة الخلاف الأساسية والحساسة في هذه المفاوضات فكانت رغبة المورسكيين الملحة على تمديد أجل الترحيل لمدة سنة يجمعون فيها محاصيلهم ويرتبون أمورهم، لكن ردّ الطرف المسيحي كان الرفض القاطع والجازم ومن هناك فُسح المجال للمجابهة ميدانياً لوضع حد للنزاع.

فتحرك قائد الحاميات الملكية بيدرو بقواته لاقتحام عرين المجاهدين المورسكيين قصد استئصال شأفتهم حتى ولو أدى الأمر الى إغراق الطرفين في بحر من الدماء وكان له في آخر المطاف ما أراد حسب رأي المصادر، حيث انطلقت قواته مدعومة بالمتطوعين والقناصين وحاصرت كائناً المجاهدين وحكمت القتل فيهم وذلك نظراً لعدم التكافؤ بين الطائفتين المتقاتلتين لا من حيث العدد ولا من حيث العتاد فما هي إلا ساعات من المجابهة البدنية حتى أعلن المورسكيون تراجعهم مخافة الإبادة الشاملة وأعلنوا قبولهم بشروط الترحيل فاستنزولهم من معاقلمهم وقادوهم

الى الموانئ على الفور. أما قائدهم ثوريخي فانه سيق الى المقصلة ونفذ فيه حكم الاعدام الأقصى وبعدها علق رأسه على إحدى بوابات مدينة بلنسية وذلك في شهر ديسمبر من عام 1609.

وكان اختيار المورسكيين السلمي قد أوقد حفيظة المتعصبين الذين كانوا يمتنون أنفسهم بمجزرة رهيبية.

ويظهر أن انتفاضة جبال كورتيس حسب المصادر التاريخية لم تنته بانتهاء قائدها، بل استمرت جماعات قليلة في التشرذ والعصيان ودامت محاولاتهم الشجاعة ما يقرب من سنتين كاملتين الأمر الذي أعيبى السلطات القمعية بلنسية مما جعلها تُولي أمرهم الى القناص المحترفين وقد لبي تنفيذ مثل هذه العمليات على التوالي كل من غارسيا برابو دي أكونيا (Garcia Bravo de Acuña) الذي ترأس مجموعة من قطاع الطرق والقناصين لكنه فشل في تحقيق رغبة محاكم التفتيش واستدعي بعده القائد سيميون ثاباتا (Simeón Zapata) عميد اللصوص، آنذاك فاستخدم كل وسائل التنكيل مما جعل الملاحم ترفع من وضاعته الاجتماعية وتلحقه بمصاف الأبطال الخرافيين كما فعلت قبل خمسة قرون مع قاطع الطرقات السيد القمبُطور (Cid Campeon) الذي قتل على يد المرابطين.

وقد أجمعت المصادر الموثوق بصحتها أن عدد المجاهدين بعد اغتيال قائدهم كان خمسة وثلاثين شابا يتمتعون بفتوة خارقة وإيمان راسخ، ومعرفة جدٌ دقيقة بمسالك المنطقة وحسٌ فريد التصور بالانتماء الى الأرض التي منها جاؤوا ومن أجلها يكافحون. وطوال سنتين كاملتين يذكر لنا المؤرخ الفرنسي هنري لابييري (Henri Lapeyre) مشيرا الى نهاية الثورة والثوار معتمدا فيما يقول على بعض الوثائق المخطوطة «أنهم كانوا ثلاثة وثلاثين الذين حملوا على متن سفينة في اتجاه الجزائر وذلك يوم 6 مارس من عام 1612»⁽⁴⁾ أي أنهم افتقدوا طوال سنتين من الكفاح شهيدين وهكذا كانت نهاية ثورة جبل مويلا دي كورتيس التي ما تزال الوثائق الى

— H. Lapeyre: *Géographie de l'Espagne*, p. 67

(4) انظر

يومنا هذا تضيف المزيد من المعلومات حول بسالة وثبات تلك الأقلية التي كتب عليها أن تصبح شاهدا على حضارة أعطت الكثير وجنت الدماء والتشرد والمقت لصانعيها فكان مصيرهم الختامي لا كما أرادت العناية الالهية بل كما رغبت نزوة محاكم التفتيش.

انتفاضة المورسكيين بجبل. لاغوار Laguar

إن هذه الانتفاضة المورسكية نجدها تتزامن تقريبا مع السابقة التي فصلنا الحديث فيها، إذ نجد الدوافع ذاتها هي التي حفزت أو بالأحرى أجبرت المجاهدين على اعتناق التمرد كحلٍّ أمثل من الممكن أن ينقذهم من عدو مترص بهم وأعراب ينتظرونهم وراء البحر للفتك بهم وبما يملكون، لقد أشرت قبل هذا أن المورسكيين المرحلين واجهوا ما لم يكونوا ينتظرونه بين ظهرائي إخوانهم سواء بتلمسان أو وهران أو الجزائر إلا أن المصادر الأجنبية بما فيها الملاحم جلهما تجمع على ذكر سوء الاستقبال ونحن نعلم أن مثل هذا الاجماع لا نجده قاصرا على أصحاب الحوليات التاريخية من النصارى بل نجد ما يعززه في بعض المصادر العربية ككتاب «أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر» لمؤلف مجهول، حيث نجده يشير وهو بصدد الحديث عن رسالة كتبها أبو عبد الله بن قطيبة ردا على رسالة أحد أصدقائه وقد وصلتنا هذه الرسالة منقولة من طرف عبيد الله أحمد بن يحيى بن محمد بن علي الونشريسي الذي فرغ من نقلها يوم الأحد التاسع عشر (19) لذي القعدة من عام ستة وتسعين وثمانمائة 896 م، حيث يظهر من فحوى الرسالة تدمير بعض المورسكيين المهجرين الى دار الاسلام ببر العدو، فضاقت بهم الحال مما جعلهم يفكرون في وسيلة للرجوع الى دار الكفر فيقول النص «وربما حفظ عن بعضهم أنه قال على جهة الإنكار للهجرة الى دار الاسلام التي هي هذا الوطن صانه الله ألى ها هنا يهاجر من هناك؟! بل من ها هنا تجب الهجرة الى هناك!! وعن آخر منهم — المقصود دائما المورسكيين — أيضا أنه قال : إن جاز صاحب قشتالة إلى هذه

النواحي نسير اليه فنطلب منه أن يردنا الى هناك» (5).

مثل هذا اليأس المفرغ من دار الاسلام يعاضده ما ورد في المصادر النصرانية وهو من الدوافع الكبرى لانطلاق الانتفاضة بجبل لأغوار، هذه الانتفاضة التي أضفى عليها شعراء الملاحم المذكورة جوا ملحما مثيرا، فشاعر معاصر لها كأفيلار (Aguilar) نجده يطعم تفاصيلها بأحداث درامية قد تكون من وحي خياله الخصب، أو من واقعها الدامي وذلك لأننا لم نظفر بما يؤيدها في المصادر والوثائق التاريخية التي اهتمت بتلك الأحداث. إلا أن فحص هذا الوهج الأسطوري الذي حلّى به الشاعر ملحمة لا يمكن الجزم بالغائه لأن الأوضاع المأسوية التي أحاطت بمصير المورسكيين تجعلنا نتوقع إمكانية حدوث أي نوع من أنواع الغرابة والخوارق، كما أن حتمية الجوار بين المورسكيين والنصارى تجعلنا لا نلغي امكانية وجود مثل هذا الحدث الدرامي والذي مفاده كما تنص الملحمة أن شابا مورسكيا مسلما يدعى عبد الله تعلق بفتاة نصرانية تدعى تُودورا (Tudora) وبلغ تعلقهما الى درجة تواعدهما بالزواج بل أوشكا على إتمام مراسم القران لولا تفاقم الوضع فحال دون تحقيق رغبتيهما وذلك نظرا لدخول قرار الجلاء، أو الترحيل الاجباري حيّز التنفيذ فكان مصيرهما المفاجيء هو الفراق، فوجد عبد الله نفسه في حشد المرحلين ووجدت تُودورا نفسها مبعدة عنه بحكم تعسفية القرار واستحالت أمالهما الى التلاشي، ونجد الملحمة تُحبك لهذا القانون الجائر خيوطا درامية لتزيد من فظاعته وإجحافه حيث لم يتوان البطل عبد الله من اغتنام أول فرصة ليجد نفسه الى جوار خطيبته، ولما جنّ الليل تسلل الخطيبان وبمّما شطر الجبل وعلى اثر هذا التسلل خرجت دورية في طلبهما فلم تجد أدنى صعوبة من العثور عليهما، فأما الفتاة النصرانية فإنها قد تعرضت لانتهاك شرفها كما تقول الملحمة، من قبل أهل ملتها وأما مصير عبد الله فإنه لم يتأسك أمام بربرية المشهد فاندفع على الجاني بخنجره دفاعا عن شرفه وشرف من ستصبح زوجة له، لكن كامل حراس

(5) انظر أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر مؤلف مجهول : تحقيق الالماني مركوس خوزيف مولير، نشر بميونخ عام 1863،، (ص 32 - 34)

الدورية ألقوا بثقلهم العدائي عليه وطرحوه أرضا وانهاروا عليه بكل وسائل التعذيب الى درجة جعلته يفقد وعيه ويدخل عالم الاعماء»(6).
أما الخطيبة فإنها أمام هول المشهد لم تتأسك حتى اندفعت مستغيثة الى أن بلغت مرتفعا شاهقا ومن هناك ألقّت بنفسها احتجاجا على الواقع المر وظنا منها أنها افتقدت من تحب والذي رأته جثة هامدة تحت الحوافر الهمجية. ولما فصلت الدورية تاركة وراءها جثة هامدة بعثت الأقدار أحد المورسكيين الثوار لتلك الجبال وهو ميليني (Mellini) كما يسميه الشاعران أغيلار (Aguilar) وميندث دي باسكونثيلوس (Mendez de Vasconcelos) فضمه الى صدره ووجد فيه بقية روح ما تزال تعتلج بداخله فتعانقا ووعده بالثأر له إن عاجلا أو آجلا.
هكذا أعطى كل من الشعارين المذكورين سلفا. لظروف الترحيل مثل هذه الشحنات الملحمية إيمانا منهما بخطورة الموقف الذي لم يشهد تاريخ الانسانية مثيلا له.

فوقف القائد المورسكي معبرا عن فظاعة المشهد في خطبة حماسية مهيجة هزّ بها ارجحية رفاقه فذكرهم خلالها بالوطن والأرض التي ليس لهم سواها كما لفت انتباههم الى ما ينتظرهم بعد الترحيل من سوء استقبال وتشرد مدلا على ذلك بالعديد من الرسائل المستغيثة التي وصلته من دار الاسلام بالمغرب العربي الاسلامي فكان تجاوب القوم لصيحاته جماعيا، وكان الاجماع هو المقاومة ومجابهة العدو مهما كلفهم ذلك، فكان تاريخ 25 أكتوبر من عام 1609 هو موعد اللقاء لكل سكان العديد من القرى والمداشر فتجمع شملهم وأعلنوا العصيان.

ومما يلفت الانتباه ونحن نقلب ونتمعن في فحوى الملحمتين الشهيرتين أنهما بالاضافة الى اتفاقهما في سرد الأحداث فانهما رافقا مجرياتها كما لو أنهما يوميات لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا واستنطقتها وأوضحتها. ويظهر أن مجمل المطاف لتلك الثورة قد تمحور في العناصر التالية :

— G. Aguilar : **Expulsion...** pp. 54 - 55

(6) انظر ملحة

- الموقف التمردى المعلن من قبل المورسكيين كخيار لا بديل عنه
- ردود الفعل المسيحية السياسية منها والدينية.
- المواجهة بين الطائفتين المتنازعتين
- خلاصة المعركة.

أما الفعل التمردى للمجاهدين المورسكيين فإنه اعتمد الأسس الآتية حسب رأينا حيث باشر التمرد بالمجاهرة بالعصيان العلني للأوامر الملكية؛

- ثانيا التزام تنظيم خاص للمجاهدين في المقاومة.
- أما الموقف الثالث فإنه ينجلي في الموقف ذاته حيث يأتي كتعبير عن قناعات ذاتية لا خيار معها.

لكن تفاصيل كل ذلك نجدها تم كالتالي : فالموقف الأول تمثل في توجه المجاهدين للاعتصام بجبال لاغوار (Laguar) بدل النزوح مع بقية رفاقهم الى الموانئ حتى يتم ترحيلهم ومن هناك نجد المصادر تذكر قرابة عشرين الف مورسكي ما بين رجال ونساء وأطفال قد تجمعوا(7).

وهذا التجمع الهائل أصبح من الضروري إيجاد طريقة لتنظيم عملية المقاومة الشعبية وما لا شك فيه أن الظرف أصبح يلح كذلك على اختيار من يتولى زعامة هذه المهمة الخطيرة فكان الاجماع بدون أي تحفظ على الثائر ميليني ذلك الشاب المتحمس لمصير أتباعه، وفور الاجماع تحول زمام مصيرهم بيديه فصار قائدهم وأميرهم، وإن كانت الملاحم الشعرية ما تنفك تنعته بلقب الملك لكنه تجاوز منهم لتفخيم الموقف.

فاستعد هذا القائد المجاهد من توة وشرع في تنظيم صفوفه تنظيما محكما مفتتحا بتقسيم أتباعه الى مواقع دفاعية حصينة تحت إمرة قادة

— G. Aguilar : expulsion... p. 66

(7) انظر ملحمة

وكذلك Damián Fonseca Justa *expulsion de los Moriscos de España con la instrucción apostasia y Traición dellos y respuesta a las dudas que se ofrecieron acerca desta materia*, Roma 1612, p. 291.

J. Bleda : *Crónica de los Moros*, p. 109

وكذلك

انتخبهم بنفسه وبعدها شرع في عملية تجهيز المواقع بما يلزم من ذخيرة حربية ومؤن مع تنصيبه للعديد من المحارس أو الطلائع لمراقبة تحركات العدو عن كثب، مع اقراره لخطة هجومية تعتمد المباغتة والكتمان وهو ما يسمى بلغة العصر «بجرب العصابات». فعاتت عليهم هذه الخطة بانتصارات متتالية تمكنوا خلالها من غنم العديد من الأسلحة والمؤن الأمر الذي جعل خطرهم يستفحل يوما بعد يوم ويتحول الى مهدد حقيقي لأمن المملكة كما زاد من بغض وحنق العامة والخاصة عليهم وخاصة ما كانت تديعه الكنيسة في الأوساط لتشويه جوهر المقاومة وتحريض الناس على استئصالها لأنهم أعداء للدين وللسلطة. فسمموا بهذه الدعايات المغرضة المتتالية كل الأجواء حتى أوقدوا نار الحقد المطالبة بالانتقام، والضاغطة على السلطة كي تشرع في عملية الابداء لهذه الطائفة الأمر الذي دفع بالمملكة الى تجنيد كل ما لديها من طاقات لاجماد هذه المقاومة فاستدعت قواتها المرابطة في الاماكن المتعددة وفتحت سجلات للمتطوعين من المتعصبين الحانقين وكان على هذه القوات الهائلة ان تزحف صوب الهدف مباشرة فتوجهت الى المنطقة الجبلية أين تحصنت المقاومة وحاصرتها من جميع الجهات الاستراتيجية فاصلة بينها وبين الخارج بجدار من الفياق والمتطوعة، وبعد مناوشات عمدت القوات الملكية الى ارسال رسول كمفاوض باسم الملك فتوجه الى قاعدة المجاهدين المورسكيين وطرح عليهم الأمر من وجهات أربع حسب اجماع المصادر :

— الأولى : انه مبعوث خاص وناطق رسمي باسم الملك، والملك هو الأمر والنهي وأوامره يجب أن تسري على جميع رعايا المملكة بما فيهم المورسكيين، وعصيان أوامره يعني خرقا لموجبات الطاعة تستوجب العقاب الأقصى.

— الثانية : أشعرهم بقلّة عدّتهم وعددهم أمام ما ينتظرهم من قوات مصرّة على اكتساحهم واستئصالهم.

— الثالثة : حدّتهم من مغبة الدخول في المواجهة التي من دون ريب ستسفر عن مجزرة رهيبية.

— الرابعة : خيرهم كأحسن وسيلة لضمان الحياة هو الاستسلام والقبول بقانون الترحيل والشروع في الاستجابة الى تنفيذه من توهم.

لكن الرد الصارم وغير المنتظر من طرف المبعوث الرسمي فانه جاءه على لسان قائد المجاهدين حيث كان الرفض المطلق لكل تهديدات الرسول جملة وتفصيلا ومعلنا له بأنهم في أرضهم ووطنهم ومن حقهم الدفاع عن كيانهم وشرفهم، واذا كانت قوات الملك لا حصر لها فإن في رجال المقاومة من الشجاعة والاقدام ما يجعلهم يستهينون بكل ما تملك هذه القوات من عدد وعتاد وأنهم لا يخشون عاقبة المواجهة حتى ولو أبادتهم(8).

وبعد هذا الرد الذي أجمعت مختلف المصادر على صحته نجد الشاعر منديث دي باسكونثيلوس ينفرد بخبر مفاده أن المورسكيين أقدموا على خرق شرعية وجوب ضمان أمن المفاوضات ففي روايته الشعرية يذكر أن المورسكيين بعد ردهم الرفض أجهزوا على مبعوث الملك لكن المصادر التاريخية المعاصرة للأحداث كتلك التي اعتنى بتسجيلها مؤرخ البلاط الملكي الرسمي أنطونيو كورال دي رُوخاس (Antonio Corral de Rojos أو المؤرخين فونسيكا (Fonseca) وبليدا (Bleda) فانها لم تذكر شيئا من هذا .

واستمرت المفاوضات بين الطرفين أياما عديدة أسفرت عن مطلب أساسي من طرف المورسكيين ينصُ على القبول بقرار الترحيل لكن بشرط أن يؤجل إلى ما بعد جني المحاصيل والتخلص من المبيعات وتصفية كل حساباتهم.

إلا أن المعنيين بشؤون الأمن من عسكريين وأعضاء في الحكم وكذلك رجال الدين فاتهم فسروا هذه الرغبة بأنها تخفي وراءها أهدافا مبيتة من قبل المورسكيين وذلك كانتظارهم لمددٍ من الأتراك العثمانيين بشمال افريقيا ، أو تنظيم شؤونهم الدفاعية أو مناورة لربح

— G. Aguilar : *Expulsion..* pp. 78-81.

(8) انظر ملحة

الوقت لا غير . لذا جاء الردّ المسيحي بالفرض المطلق لأي مهلة يمكن أن تمنح للمورسكيين ، وبعد هذا الأمر الواقع انطلقت المواجهة واستمر المورسكيون في تنفيذ خطّتهم الحربية التي تعتمد المباغته والكمائن والتي غالبا ما تتم آناء الليل حتى تضمن لهم نصرا خاطفا ، وقلة في الضحايا ، لكن المصادر التاريخية والملحمة أجمعت على أن تاريخ 21 نوفمبر من عام 1609 كان بمثابة اليوم الفاصل بين الطائفتين حيث لم يعد هناك مجال للمناوشات وساعتها فسح ميدان المعركة الحقيقية التي أسفرت عن مجزرة رهيبة لم تشهد الأحداث التاريخية مثيلا لها آنذاك . حيث سقط على إثرها الأمير القائد ميليبي شهيدا وثلاثة آلاف من أتباعه المجاهدين بعد أن تعاهدوا على رفض مبدأ الاستسلام .

أمّا ما يلفت الانتباه في هذه المجزرة الشرسة كما تذكر الملاحم وهي أنّها كانت تتسم بسمة عدم الرّحمة فاكتسحت في طريقها الطفل البريء والشيخ العاجز والمرأة المجرّدة من السلاح ، فقد زرع الموت كما تُزرع الأعشاب وامتزج التراب بالجثث المتراكمة كما صوّرت الملاحم ذلك بدقّة متناهية ، وكذلك الحوليات التاريخية. أمّا البقية المتشرّذمة والمتشرّدة فإنها ما فتئت أن استسلمت في 28 من شهر نوفمبر من عام 1609. وقد كان وصف حال هذه البقية المتبقية من المجاهدين من طرف المؤرخين على درجة عالية من المساوية حيث انهارت قواهم جوعا وعطشا وجراحا فقد تساقط معظمهم على امتداد الطريق والأدهى والأمر من كل هذا كما يذكر رُوخاس (Rojas) أن عددا كبيرا من المورسكيين وجدوا أنفسهم مجبرين على بيع أبنائهم حتى لا يكونوا فريسة القتل أو يموتوا جوعا أمامهم».

أما عملية ترحيل هؤلاء المسحوقين فقد تمت ابتداء من 4 الى غاية 27 من شهر ديسمبر أي في عزّ الشتاء الشاتي وليس على متن السفن الملكية هذه المرة بل على متن سفن تجارية لبعض الخواص من قرصان

وتجار الرقيق وناهيك بسوء المعاملة والتعذيب التي أضيفت الى محنة هؤلاء المنكوبين وقد كان لشدة الاحتياج الذي كان يعانيه هؤلاء المنهزمون المرحلون ما أدى بالسلطة الملكية الى دفع أجر الترحيل كأقصى ما يمكن أن تمنحهم من مساعدة وذلك للتخلص منهم مهما كلفها الثمن.

خلاصة لنتائج المقاومتين

اذا أردنا أن نعقد مقارنة بسيطة بين نتاج الثورتين فإننا نجد هذه الأخيرة التي اشتعلت في جبال لاغوار (Laguar) كانت نتائجها جد مأساوية بالنسبة لمصير المورسكيين حيث فقدوا على اثرها كل شيء المال والأرواح، فما إن انفجرت نار الحرب حتى بقي منهم ثلاثة عشر ألفا ومائتا نفر (13.200) رحلوا من موانئ دانية وشاببي حسب رأي المؤرخ لايري (H. Lapeyre)، وكما رأينا أن الذين سقطوا في ميدان المعركة كان عددهم ثلاثة آلاف مجاهد أما الفارق الهائل من المفقودين فقد لقي حتفه نتيجة العذاب والتشرد وانتظار رحلة المجهول.

وقد أطنبت المصادر أيما إطناب في وصف أهوال المعارك والأسباب التي أدت بالمورسكيين الى افتقاد كل شيء؛ فكل ما كانوا يملكونه من مؤن تقول المصادر أنه زرع في ساحات القتال واختلط بدماء وجثث الأموات وبلغت درجة شراسة العدوان أن جعلت جنود النصرارى يسطون على الجثث الهامدة للنساء ويحرقونها، وينتزعون ما عليها من حلي ويقتلعون الأذان ويقررون البطون ظنا منهم أنها تخبيء ذهبا أو أشياء ثمينة.

إنها مجازر لا أقول فريدة من نوعها بل إنها ترهبات في التمرس على أساليب الإبادة مهدت سبيل استغلال مثل هذه التجارب مع شعوب أخرى كان خير شاهد على امتدادها واعتمادها ما حدث في القارة الجديدة قارة واد الذهب ومأساة الهنود هناك.

لقد كان هذا الانتصار المأسوي بالنسبة للصليبية الحاكمة انتصارا ذا حدين : انتصارا عسكريا وانتصارا مسيحيا على الاسلام، انها الذكرى

الغالية بالنسبة لهم التي بإمكانها محو اثار معركة لكّة بقيادة طارق بن زياد أو الزلّاقة بإمرة يوسف بن تاشفين على ألفونس السادس.

ومن كل ما سبق ذكره تبقى المقاومتان الشهيرتان لمورسكيي منطقة بلنسية هي آخر نفس يلفظه المسلمون بأرض الأندلس وحسب احصائيات الباحث الفرنسي لايري (H. Lapeyre) أن عدد المرحلين الأخيرين بعد هذه الأحداث الدامية كان مجموعه (116.022) مورسكي التحقوا بشمال افريقيا مخلفين وراءهم جوا بهيجا من الاحتفالات المسيحية التي دامت أياما وليال تحت شعار «تحرير بلنسية» الذي عمّ كامل أرجاء المنطقة. واستمرت الاحتفالات كما تذكر المصادر الى غاية شهر فبراير من عام 1610 وهي الاحتفالات التي ما تزال تجدد كل سنة الى يومنا هذا.

وبعد هذا كله تبقى منطقة بلنسية بحكم موقعها الجغرافي كسجل حافل بمثل هذه الأحداث التي أسفرت عن أعنف المقاومات التي تشبث فيها المورسكيون بأرضهم وأرض آبائهم وأجدادهم لكن الحتمية التاريخية وقفت ضد إرادتهم العزلاء. لذا كان صدى باقي النواحي في ميدان المقاومة عبارة عن حركات تمردية تجرع على اثرها المورسكيون الهزائم دون أن يسجل فيها ما سجل في صفحات مقاومة بلنسية من مواقف مثيرة وإرادات ثابتة وامكانيات محدودة من العدة والعدد لكنها كانت عامرة بالايان الصادق والتشبث ببقايا الأجداد، بقايا السراب الذي يحسبه الظمآن ماء...!

الفصل الرابع

- نهاية نأساة الموركيين في باقي المقاطعات الأخرى
- مجريات طرد الموركيين من مقاطعتي كاطالونيا وأراغون
- كيف كان رد الفعل عن الموركيين المحليين



نهاية مأساة المورسكيين في باقي المقاطعات الأخرى

على اثر انهزام ثورتي جبال لاغوار ومويلا دي كورتيس غلقت أبواب المنفى والترحيل الاجباري بالنسبة للأقليات المورسكية وانتهت معها عملية التصفيات والابادة الجماعية التي أشرف على تنفيذها رجال الكنيسة والملوك منذ استسلام غرناطة بني الأحمر عام 1492، وقد سجل الشاعر الملحمي أفيلاز (Aguilar) آخر أحداث الترحيل التي عرفتها مقاطعة بلنسية (Valencia) المجاهدة قائلاً بأسلوب الجزم والقطع :

... لقد بقيت المملكة عارية من كل مورسكي
ومن بين الذين غادروها وأخرجوا منها
مائة وثلاثون ألفاً تعاقبوا دُون رَبِّ(1).

وبعد هذا الجلاء الذي تابعت وقائعه المأساوية الملاحم الثلاث؛ نجد ملحمة الشاعر أفيلاز تتوقف لتسرد علينا بقية المراحل القاسية التي كانت تنتظر أقليات المورسكيين الموجودين بمقاطعات أخرى كمُرسية وغرناطة وأراغون وكطالونيا وقشتالة وبظليوس وغيرها من البقاع الأخرى. فهذه المقاطعات الآنفة الذكر كانت تتابع عن كثب ما كان يجري

— G. Aguilar : *Expulsión...* p. 169

(1) انظر ملحمة

في حين نجد احصائيات الباحث الفرنسي لايري (H. Lapeyre) تذكر لنا مجموع 116.022 المرحلين الأواخر من مقاطعة بلنسية. انظر كتابه : جغرافية، ص 62.

من إبادة ومجازر ومتابعات وتصفيات في بلنسية المقاومة، وكانت تتأثر هي الأخرى بمجريات تلك الأحداث الجسام التي يُعاني مرارتها إخوانهم في العقيدة فما كان منهم سوى أن تهافتوا على الأسواق بكل ما يمتلكون من غال ونفيس مسارعين الى التخلص منه بأبخس الأثمان مما هزَّ وأربك انتظام القدرات الشرائية في الأسواق وأغرقها في مزادات علنية منخفضة العرض وهذا على الرغم من خروج عشرين ألف نسمة فارّين قبل صدور قرار الترحيل الأمر الذي دفع بالملك الى اصدار مرسوم ملكي شديد اللهجة يحرم بموجبه على المورسكيين مواصلة بيع ممتلكاتهم ويحرم على المسيحيين شراءها مهما كان ثمنها زهيدا وذلك في 14 من شهر نوفمبر من عام 1609، كما حذّر هذا القرار كل الذين تسول لهم أنفسهم المخالفة وهددهم باغتصاب ممتلكاتهم لو حاول أحدهم مخالفة نص القرار، كما عقب القرار ولعله من منطلق التموه، قائلاً أن قرار الترحيل الصادر في حق المتمردين بمقاطعة بلنسية لا يعني باقي المقاطعات الأخرى وذلك ربما تحسبا لأي انتفاضة محتملة قد ينهض بها المورسكيون فيعسر على القوات الملكية ساعتها إخمادها والسيطرة عليها وخاصة أن أوار المقاومة بمقاطعة بلنسية ما يزال على أشده وكل القوات الملكية كما ذكرنا في الفصل المخصص لها مرابطة هناك وفي اشتباكات متواصلة قصد استئصال الثورة قبل استفحال أمرها بشتى أنواع الوسائل حتى تضمن المملكة إقرار الأمان في مقاطعات المملكة الأخرى.

لكن على اثر تحكّم القوات الملكية في الوضع وتمكّنها من تطوير المقاومة لم يتردد الملك فيليب الثالث من إصدار قراره القاضي بتهجير المورسكيين من مختلف مقاطعات المملكة مهما كان عددهم، فكان 9 من شهر ديسمبر من عام 1609 هو موعد صدور القرار المهورّ بخطم الملك وعلى اعقابه اعطيت التعليمات لـمختلف حكام المقاطعات كي ينشر ويبلغ وذلك ابتداء من 12 من شهر جانفي 1610.⁽²⁾ فانطلقت هذه العملية من مدينة اشبيلية وعين على رأس من سيشرف على تنفيذ

عملية الترحيل أحد النبلاء المعروفين بعراقه أروميتهم المسيحية وقدم عداوتهم لما هو غير مسيحي فكان «خوان دي مندوثا ماركيز سان خرمون»، هو فارسها الموعود، ومن اشبيلية انطلقت طلائع هذا القائد ليزحف بها على باقي المقاطعات قصد اخلائها من المورسكيين ومخلفاتهم وحملهم على الرحيل الاجباري بحد السيف، كل هذا ورد ذكره في ثنايا المقطوعات الثمان التي خصها الشاعر أقيلاز لأحداث التهجير هذه.

أما المصادر التاريخية المعاصرة للأحداث تقريبا فإنها أكدت بدورها تاريخ القرار؛ لكن يبقى الشاعر أقيلاز متفردا ببعض التسجيلات الخاصة بمجريات أحداث الترحيل، ومصير المورسكيين والدوافع والأسباب الرامية إلى الاسراع بتنفيذ القرار وكذلك الشروط المقترحة على المهجرين مع تحديد مدة الجلاء، وكذا مصير ممتلكاتهم ثم ختمها بتسجيل مواقف المورسكيين من كل ذلك وكيف كانت ردود الفعل المسجلة من كلا الطائفتين المورسكية المسلمة والمسيحية المتعصبة.

وإذا نحن اعتمدنا ملحمة الشاعر أقيلاز وتبعنا معها خيط الأحداث نجدها توحى بأن قرار الملك قد تزامن ظهوره في كل المقاطعات المأهولة بالمورسكيين والمعنية مباشرة بأمر الترحيل. أما الأسباب فإنها ذاتها التي سبق أن وجهت الى المورسكيين من قبل بيلنسية حيث ألبسوا تهمة «الخيانة العظمى». أي عداوة الايمان المقدس، الذي يتجلى في الأب الأكبر والابن وروح القدس، مع اتهامهم بعدم الانصياع الى الأوصياء على دين المسيح من قساوسة وراهبان وكنيسة وكذلك ظله الممدود على الرعية والمجسد في شخص الملك المبارك من طرف الأوصياء، وهي مجموعة من التهم التقليدية التي تؤكدتها أيضا المصادر التاريخية ويتفق هنا كل من الشاعر أقيلاز والمؤرخ برونات (Boronat) في تحديد مدة التأهب المعطاة للمورسكيين حتى يجمعوا أمورهم ويتحركوا في اتجاه الموانئ المعدة لاستقبالهم وذلك في بحر شهر (3)؛

— Boronat : Los Moriscos Españoles. T. 2 pp, 281-282

— G. Aguilar Expulsion... p. 172

(3) انظر

وملحمة

لكن نُحوان مندوثا نجده يقصّر هذه المدة الى عشرين يوماً.

أما فيما يتعلق بالمتلكات فقد منح القرار المورسكين إمكانية أخذها أو بيعها لكن دون مقابل من فضة أو ذهب، كما حدّد القرار مع ذلك ضرورة دفع الإتاوات من ضرائب جمركية تؤدي على كل المحمولات.

وقد أبرز القرار هذه المرونة الملحوظة اذا ما قورنت بما صدر في مقاطعة بلنسية كهبة أو رحمة مُرجاة من طرف الملك، ليسهل بها عملية الخروج دون مقاومة.

لكن ماذا عن المورسكين، وكيف جاء ردهم على كل هذه القرارات الملكية؟ لقد جاءت ردود الفعل في مجملها سلبية نتيجة الرعب الذي تسرب إليهم نتيجة لما حصل مع اخوانهم في مقاطعة بلنسية فاستجابوا جماعيا لداعي القرار وسارعوا الى تنفيذه قبل أوامه، فحشدوا حمولتهم في الموانئ وتراكموا منتظرين فرصة الرحيل وكأني بهم يخشون مغبة تراجع الملك بقرارات مضادة ومباغثة قد تحرمهم من مئة الملك التي لم يحظ بمثلها سكان مقاطعة بلنسية، فالاستجابة المبكرة جاءت بمثابة اغتنام الفرصة قبل أوامها. وقد فصلّ الشاعر أقيلاز القول أيما تفصيل في تصوير مُجريات الترحيل انطلاقا من ضفاف الوادي الكبير الى غاية المرافئ البحرية حيث كانت الحشود الهائلة التي تشيع المطرودين وهم يلهجون بالملاحن الحزينة التي كانت تعرفها فرقهم فكان بعضهم كما يقول الشاعر أقيلاز تقرأ على وجهه أمارات الفرحة والبهجة وآخرون تلاحظ على سيماتهم ملامح الحزن الدفين والألم المريح بالأحشاء فتراهم متشاقلين في رواحهم، إلا أن البعض الآخر فانه ما فتىء يُعرب عن أشجانه بتريديد القسم المعظم أنهم لا محالة راجعون بمعونة الديان مهما كلفهم الثمن من التضحية.

... وآخرون

يلهجون بصوت من التهديد الغاضب

أنه اذا أسعفهم القدر الأزلي
سيعودون مرة ثانية الى اسبانيا(4)

مثل هذه المشاهد التي خلدها ريشة الشاعر الملحمي أقيلاز بوهج
درامي مفعم بالحياة والحياة لا نجد مثيلا له في المصادر التاريخية التي
غلب عليها طابع الانقباض والاقتصاد في رصد الأحداث وسردها وكأني
بها كانت موكولة بالتوثيق الرسمي الذي لا يأبه لأهمية المشاهد الدرامية
مهما كان مفعولها، وفي المقابل نجد مقطوعات الشاعر المسخرة لرصد
أحداث الترحيل تصر على مرافقة قوافل المهجرين حتى تشيعهم الى ديار
الغربة فتقف بالقارىء عند الصغيرة والكبيرة، وتطلعه على ظروف
الجماعات الغنية والفقيرة، وتعنى برسم الفوارق والمظاهر المؤثرة، وتدقق
في رسم الطرقات التي يقطعها التسيار الطويل للمعذبين.

فملحمة أقيلاز شيعت طرداء الأندلس من ضفاف الواد الكبير جنوبا
في اتجاه مرفأ قادس (Cadiz) وشرقا في اتجاه مراسي قرطجنة ومالقة وجبل
طارق.

كما رصدت ملحمة أقيلاز ذاك التباين الطبقي الاجتماعي الذي يميز
بين طائفة المورسكيين كفيئات متنوعة اجتماعية من حرقين وصنائيعين،
وأغنياء وميسورين وفقراء ومعدمين وهلم جرا، بل تنبئت هذه الملحمة
حتى الى ما كان يحف بعض الأشخاص وهم وسط التجمعات الهائلة
من حفاوة وأبهة ووقار وتقدير من طرف الأتباع، وربما كان الأمر يتعلق
ببعض رجالات الدين الموفوري جانب الاحترام من قبل الرعية لأنهم رمز
بقائهم وأصالتهم، كما رسمت هذه الملحمة بشيء من التركيز حالة الفقراء
والمعدمين وهم يذرعون الأرض راجلين لا يحملون من متاع الدنيا سوى
بعض الحمولة المتواضعة والمتهدلة على ظهورهم، ويختم الشاعر بعد هذا
الوصف كلامه عن وسائل الترحيل التي كانت سفنا وقوارب وزوارق من

ممتلكات الخواص وهذا عكس ما تم في مقاطعة بلنسية كما رأينا حيث تولى الأسطول البحري الملكي عملية الترحيل.

مُجريات طرد المورسكيين من مقاطعتي كاتالونيا وأراغون

نستطيع التأكيد أن مصير المورسكيين في أي مقاطعة كان نجده قد تأثر تأثراً بكل ما حدث في مقاطعة بلنسية، التي عرفت المشادات العنيفة والتي أودت بالمورسكيين الثائرين الى مصير دموي رهيب الأمر الذي ترك من الأثر في باقي المقاطعات الأخرى ما جعلها تنام وتستيقظ على صفارات الانذار المنبئة بالأخبار المشؤومة مما دفع بالمورسكيين في هذه المقاطعات المختلفة الى الاسراع في التأهب، ومحاولة التخلص من كل ما هو في حوزتهم في أسرع وقت وبأبخس الأثمان. فمقاطعة كاتالونيا وأراغون بالرغم من وجود مجموعات مورسكية بها في وضعية ميسورة؛ حيث كانت تمتلك بعض الأراضي الزراعية، والصنائع الحرفية، وتستخدم للقيام بها العديد من العائلات المورسكية الفقيرة، فإن ما حصل في مقاطعة بلنسية دفع بهذه العائلات الميسورة أن تحجم عن مواصلة زراعة أراضيها، أو جني منتوجها أو قطف ثمارها، لأن القرار الملكي القاضي بالترحيل قد داهمها في أخريات شهر أكتوبر من عام 1609، وظهر مهوراً بنحتم الملك في 17 من شهر أبريل عام 1610 وذلك من عاصمة المملكة آنذاك بلد الوليد (Valladolid) ونُشر فحواه في مدينة سرقسطة عاصمة أراغون بالثغر الأعلى في 29 من شهر ماي عام 1610.

لكن هذا القرار نجده يُستقبل باستنكار شديد من طرف المورسكيين والمسيحيين على حد سواء وذلك للأسباب ذاتها التي طُرحت في مقاطعة بلنسية اذ كان للخوف من انهيار الوضع الاقتصادي ما حفز أمثال هؤلاء المحتجين على مفاتحة الملك في ضرورة التريث حتى لا يتسبب الأمر في الاخلال بالتوازن الاجتماعي والاقتصادي للمقاطعة.

لكن رغم هذه الاجراءات الوقائية فان المورسكيين كما تقول المصادر التاريخية «سارعوا الى بيع ممتلكاتهم من أثاث منزلي، الى مجوهرات

بأنحس الأثمان، كما رفعوا أيديهم على مواصلة حرث وزرع الأرض»⁽⁵⁾.

أما المسيحيون المتعصبون الذين كانوا يتحنون مثل هذه الفرص فانهم سارعوا بدورهم للاستفادة من هذا الوضع غير الطبيعي فصبوا جام حقدهم على المورسكيين وتمادوا في إهانتهم والاستحواذ على مبيعاتهم وممتلكاتهم بقوة السلب والنهب، وارغامهم على دفع الاتاوات الجبائية والضرائب المفروضة قبل أوانها مما أجبر حاكم مقاطعة أراغون على رفع دعوى ضدهم الى الملك يترجاه فيها الى الغاء قرار التهجير حفاظا على أمن المقاطعة، ويطلب منه أن يصدر قرارات تعاقب المتجاوزين من المسيحيين على تصرفاتهم العدائية ضد المورسكيين⁽⁶⁾. وقد أكد ما تقدم به حاكم مقاطعة أراغون السَّفارة التي شكلت من بعض النبلاء الاقطاعيين أمثال الكوند دي لونا (El Conde de Luna) والحكيم كاريو (Dr. Carrillo) وغيرهم؛ وتقدموا الى جلالة الملك «بكشف يوضح الأضرار الناجمة عن القرار الملكي القاضي بالتهجير»⁽⁷⁾... حيث تقول هذه المصادر⁽⁸⁾ التاريخية السابقة الذكر أن السَّفارة وصلت الى مدريد فقدمت الى جلالة الشكوى الموضحة لأسباب الأخطار الممكن انتظارها من جراء قرار التهجير ومرتجية من الملك ضرورة مراجعة قراره والسماح للمورسكيين بالموث... لكن هذه المحاولة الشبيهة بمحاولة نبلاء مقاطعة بلنسية نجدها لم تلق آذانا صاغية ولا استجابة مرجوة وذلك لعدة أسباب أسهبت المصادر التاريخية في ذكر أهمها والتي يأتي في مقدمتها التأثير القوي لدور محاكم التفتيش في مقاطعة أراغون والتي ما فتئت تلح على الملك وجوب اتخاذ مثل هذا القرار السامي والمبارك من طرف الكنيسة المقدسة، وعدم التراجع فيه حتى لا تحل اللعنة الالهية...

— J. Regla : Estudios.. p. 86 - 87

(5) انظر

— J. Bleda : Crónica de los Moros... p. 1045 col. I

وكذلك

— J. Bleda : Crónica de Los Moros... p. 1045, col I

(6) انظر

— Boronai : Los Moriscos , T2, p. 296

(7) انظر

— J. Bleda : Crónica de Los Moros... Col, 1 p. 1046

(8) انظر

بل يستحسن في رأيهم الشروع الفوري في تنفيذه وهذا كما جاء على لسان مبعوث المحاكم المذكورة الراهب ميغال سانتوس دي سان بيدرو (Miguel Santos de San Pedro) حيث أسند الى المورسكيين أبشع الاتهامات وأخطرها والتي عادة ما يكون فحواها دينيا.

وعموجب هذه الاتهامات الخطيرة تقرر ارسال المراقبين للشروع الفوري في تنفيذ قرار الترحيل بمقاطعة أراغون (Aragon) وكان ذلك في 17 من شهر أبريل عام 1610 تحت قيادة البطل الأسطوري أفستين ميخيا (Agustin Méjía).

أما الشاعر أفيلار (Aguilar) فانه خصص لهذا الحدث ثلاث عشرة مقطوعة (Octavas) المكوّنة من ثماني أبيات شعرية وتمحور لتغطي المشاهد الآتية :

(1) تصوير حضور المبعوث الملكي لتهيئة الظروف والاشراف على تنفيذ عملية الترحيل.

(2) تصوير الخروج الجماعي لطوائف المورسكيين في طريقهم الى المنفى الاجباري، وكما هو معروف فان القائد أفستين ميخيا أصبح يتمتع بخبرة فريدة في ميدان الترحيل وذلك بحكم ممارسته لمثل هذه المهام من قبل وبخاصة في مقاطعة بلنسية فأسرع من توه الى تسييج المقاطعة عسكريا تحسبا لأي رد فعل مباغت كما فعل في مقاطعة بلنسية، مما أثلج صدور المسيحيين القدامى وأسكن الرعب في قلوب المورسكيين الضعفاء.

أما حاكم المقاطعة فقد أوكل له دور التنسيق بين القائد ميخيا وجهاز محاكم التفتيش، كما اسندت له مهمة نشر القرار القاضي بحتمية الترحيل الاجباري والذي تضمن المحاور التالية :

— شرح الأسباب الدافعة لصدور قرار الترحيل
— الفسحة الزمنية المعطاة للمورسكيين قبل الشروع في تنفيذ القرار.

— ما هو مسموح به للمورسكيين من متاع وغيره يحق لهم حمله.
— نقطة التجمع قبل الترحيل.

— تحديد مراسي الاقلاع في اتجاه طرقات المنفى.

أما أسباب التهجير كما جاءت على لسان الشاعر أفيلاز في ملحتمته فهي ذاتها التي اتهم بها المورسكيون من قبل في مقاطعة بلنسية حيث ينصدها الاتهام الديني ويأتي ليعاضده الأمن السياسي للمملكة.

أما الموعد الزمني فقد تحدد بثلاثة أيام بعد نشر القرار اذ أمر بصريح القول أن على الجميع المثول الى نقاط الاقلاع مصحوبين بأبنائهم وأزواجهم. أما ممتلكاتهم فقد تسامح معهم القرار ونحو لهم حمل ما يقدرون عليه، كما عين القرار مرسى طرطوسا (Tortosa) كنقطة للانطلاق وبموجب ما سبق ذكره انطلقت أولى دفعات المورسكيين نحو المرسى المعين وذلك في اتجاهين : ركب كان طريقه النهر وركب سيق براً الى أن تم حشد الجميع في مرفأ ألفا كيس (Alfaques) وكان عددهم أربعين ألف نسمة ما بين شيوخ وشباب ونساء ورجال، ويذكر المؤرخ الفرنسي لابيري (Lapeyre) نقلاً عن بليدا (Bleda) «أن خروج المورسكيين من مقاطعة كاطالونيا قد تزامن مع خروج اخوانهم من مقاطعة أراغون حيث عين لهم مرفأ (Alfaques) كنقطة للاقلاع لأن وادي ابرا يُسهل عملية وصول المهجرين الى المرفأ المذكور، وأما قرار التهجير فقد نشر ببرشلونة في 29 من شهر ماي عام 1610 وهو اليوم نفسه الذي تلي فيه بمدينة سرقسطة عاصمة أراغون»⁽⁹⁾.

ويظهر أن الأسباب التي أدت الى اتخاذ مثل هذه التدابير والترتيبات يعود جوهرها الى محاولة الخلاص من اتمام هذه العملية الشاقة في أقرب وقت وأنجع وسيلة وبأقل ضرر ممكن لأن ترحيل ستين ألف مهجر قد يستغرق زمنا طويلا لو اعتمد في تنفيذه نقطة واحدة للاقلاع، لكن رغم هذه الاجراءات الاستعجالية المحكمة الخطة فان العملية قد استغرقت الى

غاية منتصف شهر ديسمبر من عام 1610، أي لمدة خمسة أشهر فيقول المؤرخ بليدا (Bleda) «ان آخر المهجرين من كاتالونيا وأراغون تم إقلاعهم في 18 من شهر ديسمبر من عام 1610»⁽¹⁰⁾.

كيف كان رد فعل المورسكيين المرحلين؟

لقد أجمعت المصادر التاريخية القريبة العهد من الأحداث وكذلك الملاحم الشعرية المعاصرة لها ان كلا من مقاطعة أراغون وكطالونيا وأحوازهما لم يشهدوا أي مظهر من مظاهر العنف والمقاومة من قبل المورسكيين بل المسجل تاريخيا أن قرار التهجير قد استقبل بارتياح في أوساط المورسكيين وساهموا بالمساعدة في انجاح مجريات التنفيذ بتفهمهم العميق وتجاوبهم التام مع المشرفين على العملية مما أدى الى تجنب الصدام، فيذكر الشاعر أقيلاز في احدى مقطوعات ملحمتة :

... كل المملكة قد اهتزت وألرمت

بالاستجابة لأمر الملك

وبما أن الترحيل قد اسعدهم

الى درجة جل فيها الملك كالعادل والقديس⁽¹¹⁾

أما المؤرخ نُحوان ريفلا (J. Regla) فإننا نجده يذكر وهو بصدد التعليق على تقرير حاكم مقاطعة أراغون المؤرخ بمدينة سرقسطة في شهر ماي من عام 1610 والمرفوع الى جلالة الملك فيليب الثالث أين نقرأ أقواله التالية : «يُخيم كثير من الحذر لكن المورسكيين يخرجون وأمارات الرضى مرسومة على وجوههم»⁽¹²⁾.

أما المؤرخ بليدا (Bleda) فإننا نجده يسجل بعض الاضافات الهامة حيث يذكر «أن المورسكيين الذين غادروا مقاطعة أراغون بدون أدنى مقاومة فإن انطلاقهم قد تم على دفعات تتكون الواحدة من ألفين أو

— J. Bleda ; Crónica.. Col. 2 p. 1050

(10) انظر

— G. Aguilar : Explosión... p. 180

(11) انظر ملحمة

— J. Regla : Estudios.. p. 93

(12) انظر

أربعة آلاف تحت قيادة محافظ أمّني واحد دون حاجة الى مصاحبة حرس من الجيش». وهكذا تجمع المصادر على انعدام مظاهر العُنف والمقاومة بل تسجل بأحرف واضحة أن استجابة المورسكيين للداعي الترحيل كانت بمثابة الأمل المرجّى الأمر الذي جعل تجمعاتهم الضخمة لا تحتاج الى حراسة مشددة أو طوارئ عسكرية كما هو الشأن بمقاطعة بلنسية، فكان خروجهم من أرضهم وديارهم خروج الذين لا يرجون شفاعة ولا رحمة من المسيحيين أو الملك، وقد انعكست أمارات فرحتهم الكبرى في ظهورهم بملابسهم العربية الاسلامية، وتخطبهم فيما بينهم علانية باللغة العربية، ومناداتهم على بعضهم بأسمائهم العربية الحقيقية التي سُلبت منهم وذلك أمام أعين زبانية محاكم التفتيش، الذين كانوا يتلمّظون غيظاً، وعلى مرأى ومسمع من المسيحيين المتعصبين الذين كانوا يتمنون الخلاص من حضورهم بين ظهرانيهم بشتى الوسائل. لقد سجلت المصادر الموثوق بصحتها أن أيام الترحيل بمسيراتها الطويلة كانت بمثابة الأعراس لأنها أذقت المورسكيين طعم الحرية، فسجل الشاعر أقيلاز كعادته ضمن مقطوعاته الثمان التي خصصها لرحلة العذاب أن المورسكيين في ذلك اليوم قد تجلّى مستواهم الاجتماعي فهناك الفقراء وهناك الأغنياء لكن ما جمع بين شتاتهم كملامح مشتركة أن جميعهم في انطلاقه كان يرتدي ثياب الحرير الفاخرة والكل كان على يقين من أنه سوف يُشاطر إخوانه النصيب المتوفر في رحلة المستقبل المجهولة القرار والنهاية.

وكخلاصة لهذا المطاف المأسوي لعملية التهجير الاجباري التي كُتبت على المورسكيين كأجل مسمى نجد المطاف يعرف نهايته بخروج بقايا الشتات المورسكي الموزع في مقاطعات قشتالة (Castilla) وبطليوس (Badajoz) ولامنتشا (La Mancha) وهي النقاط التي لم تتعرض لها بالذكر ملحمة أقيلاز إلا أنها بحسب المصادر التاريخية كانت مصافية للمقاطعات الأخرى وما تبقى من شتات الاسلام الأندلسي في شبه جزيرة ايبيرا بعد تاريخ 1612 الحاسم إلا أقلية جد قليلة لا يتجاوز

عددھا الالفین وخمسمائة نسمة من المورسکین بسفح رقوطة أرض عالم
الأندلس الشهير المعروف بالرقوطة الذي سیأتی ذکر محامده، وهي
الأقلية المستثناة بقرار ملكي مؤرخ في 18 من شهر جانفي عام 1610
ولم یلغ سوى بقرار لاحق أرخ في 8 من شهر أكتوبر عام 1616 حيث
تم بموجبه طرد هذه الأقلية، وهي التي حظيت في وقتنا المعاصر بالعديد
من الدراسات المستفیضة من طرف بعض الدارسین كقوادا لاجارا إي
خاير (M. Guadalajara y Javier) ومعنی هذا الاسم هو (واد
الحجارة).

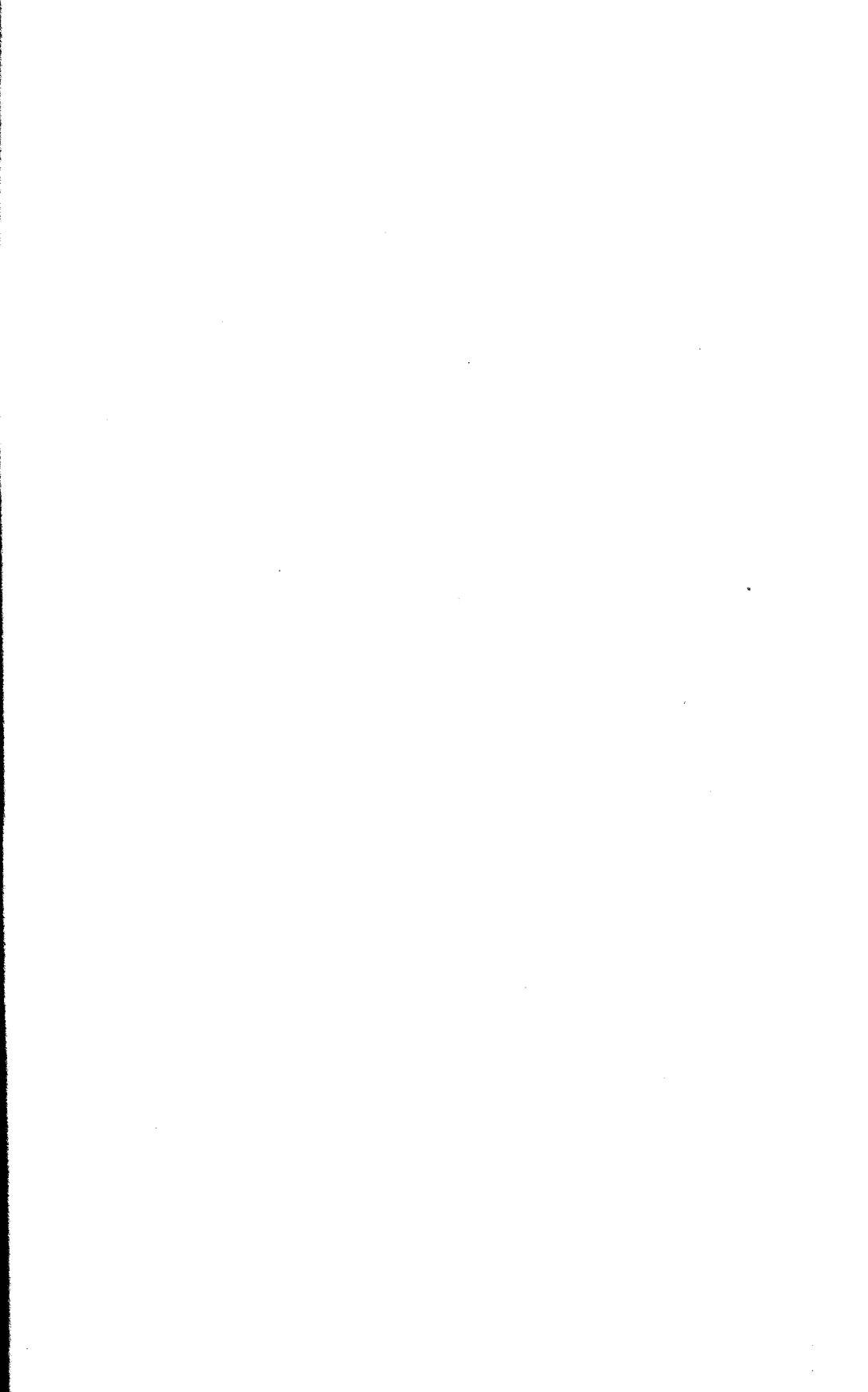
الفصل الخامس

بعض الملامح من الثقافة المورسكية

- الأهمية الأدبية للأثار المورسكية
- «الأخميادو» كمنظر من مظاهر الثقافة المورسكية
- الكتابات المورسكية الدينية



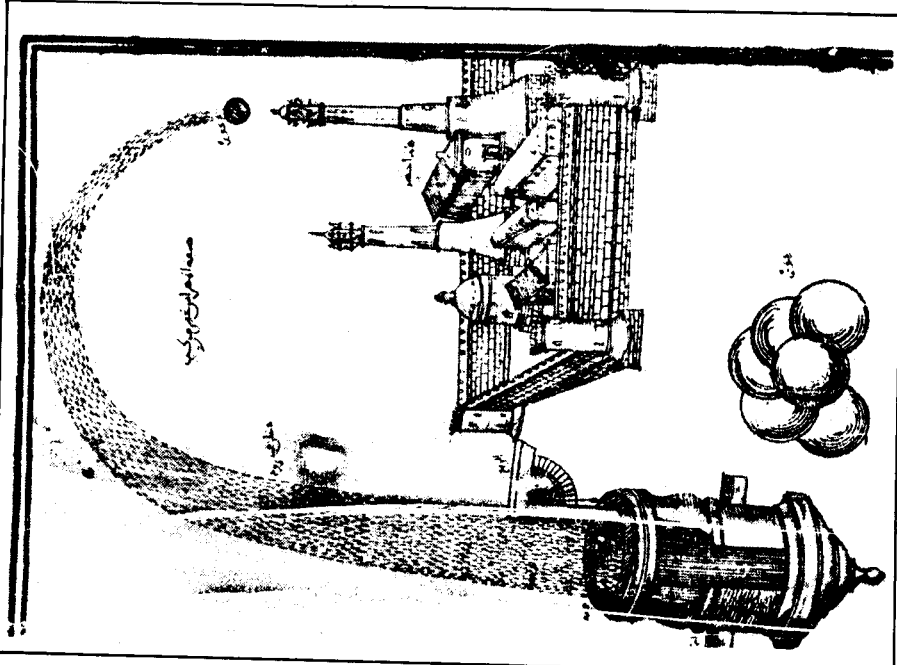
المهتدين



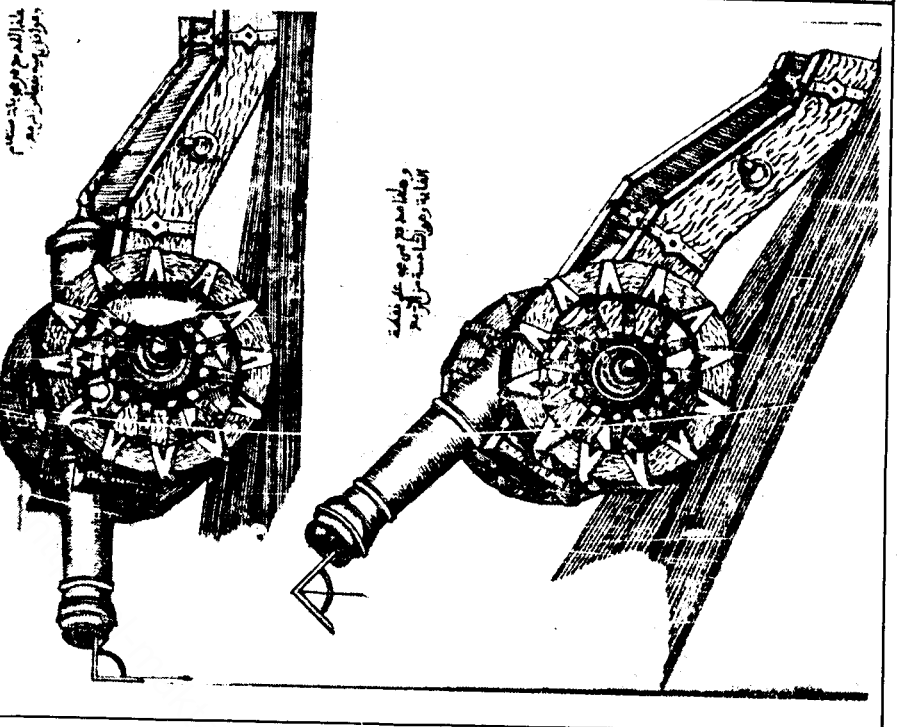
بعض الملامح من الثقافة الموسيقية

لقد ترك الموسيقيون ضمن ما تركوا للتاريخ تراثا ثقافيا لا يُستهان به، عمد مؤلفوه الى تسجيله بلغة خاصة وجديدة تعدّ من ابتكاراتهم والتي اصطلح على تسميتها باللغة «الأخمياو» — أي الأعجمية — وقد جاءت هذه التسمية الغربية من كونها اعتمدت في التعبير عن معانيها اللغة «الرُومنيّة» الاسبانية — وهي العامية اللاتينية — التي يدخل ضمن دائرتها آنذاك كل من اللهجات البرتغالية والقشتالية والاراغونية والكطالانية وهذا بحسب تواجد الأقليات الموسيقية موزعة على المناطق المذكورة.

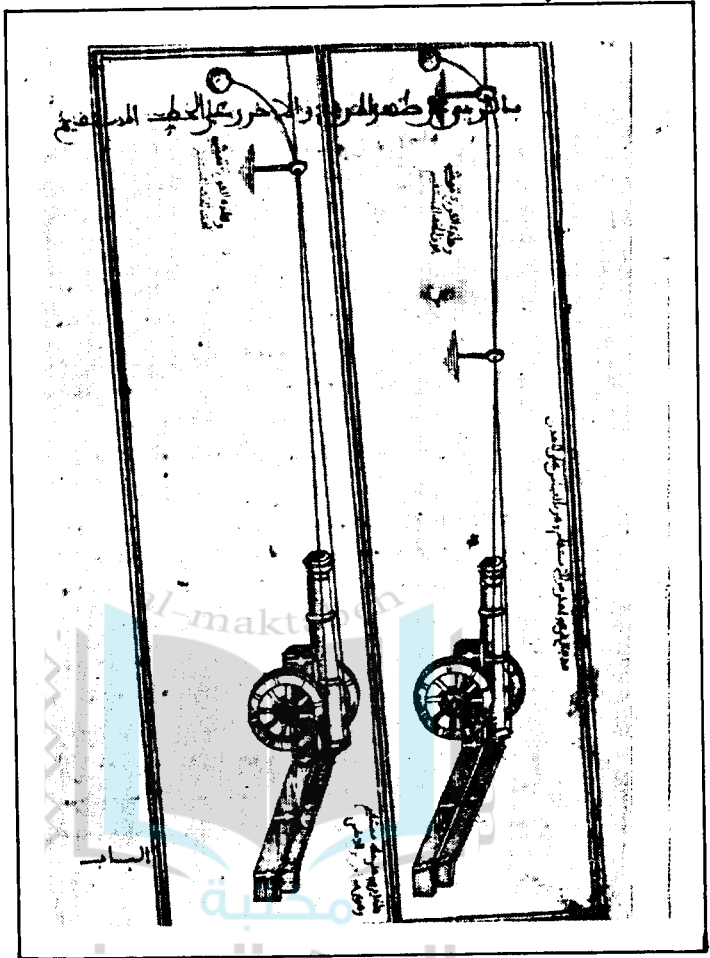
وقد سُجل هذا التراث الثقافي الموسيقي كما ذكرت باللغة الرومندية إلا أنها اعتمدت الحرف العربي كإطار خارجي عوض الحرف اللاتيني مما يجعل الدارس يقع في ارتباك وهو يقلب صفحات أحد المخطوطات مثلا فيظن أنه بصدد مخطوط عربي إلا أنه لو حاول قراءته لما فهم محتواه لكونه رومني المعاني... ومثل هذه الطريقة التعبيرية نجدها قد عرفت في اسبانيا الاسلامية أيام أوج ازدهارها، وقد لجأ اليها اليهود على وجه التحديد لتخليد مآثرهم الثقافية اذ اعتمدوا الحرف العربي كلبوس للمعاني العبرية...



صورة للمدفع الجراسيم انطلاقه على أحد الحصون، وإلى جانبه عدة من القنابل



نموذجان من المدافع التي كان يستعملها المجاهدون المسلمون في البحر الأبيض المتوسط في القرن العاشر



نموذجان للرمي أحدهما هو الأعلى يرمى فوق الخط المستقيم،
والآخر يرمى تحت الخط المستقيم

إلا أن الثقافة المورسكية التي عرفت في شبه جزيرة ايبريا على أعقاب تسليم غرناطة في 1492 الى غاية التهجير النهائي في عام 1616 نجدها شهدت تفاوتاً من حيث نشاطها الابداعي وهذا بحسب المناطق ومدى سعتها وكثافة سكانها من المورسكيين المسلمين، حيث تؤكد المصادر التاريخية على امتداد هذا النوع من الثقافة الهجينة أو «الخلاسية» طيلة القرن الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر الميلادي، فيقول أحد الباحثين المتخصصين في الثقافة المورسكية من المعاصرين ألا وهو الراهب البرو فاليس دي فوينتيس (Alvaro Galmes de Fuentes)، إنه يوجد «أكثر من مائتي (200) مخطوط مورسكي موزعة عبر العديد من المكتبات الوطنية الاسبانية وكذلك الأجنبية، ومعظمها لم يعرف طريقه الى النشر حتى الآن»⁽¹⁾.

ويظهر أن من بين هذا العدد الهائل من المخطوطات المورسكية، أن الذي لفت انتباه الباحثين والمحققين هي تلك المخطوطات ذات الموضوعات الأدبية على وجه الخصوص والتي تعود العناية بها من طرف المتخصصين لكونها ذات علاقة وثيقة الصلة بالأدب المسيحي المعاصر لها، ولأنها نتاج مرحلة معينة مرتبطة ارتباطاً حميماً زمانياً ومكانياً بتلك الصراعات الحادة بين ديانتين ونظامين حضاريين يختلفان سياسياً واجتماعياً وثقافياً فاعتبرت مثل هذه الوثائق الثقافية بالنسبة لتلك الأحداث خير شاهد على ما ميز تلك الحقبة التاريخية من مستجدات؛ كما جلبت هذه الآداب الأعجمية — المورسكية — انتباه الباحثين اللغويين نظراً للأهمية التي تنطوي عليها أساليبها البيانية واللسانية ذات الخصوصيات المتميزة كاللهجات التي عبرت بها، وكتفاعل الحرف العربي مع المعنى الأعجمي الرومنشي وهو ما أفضى للمتخصصين بمجموعة هامة من الامايط الصوتية التي ساهمت في كشف العديد من القضايا الألسنية المعقدة، كما كان لها الفضل في كشف التباين بين الأصوات

(1) انظر — Alvaro Galmes de Fuentes : **El Libro de las batallas**, T.1, Ed. Gredos, Madrid, 1975, p. 47.

بين اللغات، بالإضافة الى كون هذا النوع من الابداعات الأدبية كان وليد فترة عرفت بتحويلات كبرى على المستويين اللغوي والابداعي وهو ما ساعد على عقد مقارنات، ومقاربات، وموازانات بين هذا النوع من التسجيل الخطي المورسكي وبين النمط الكتابي المعروف عند الكتاب المسيحيين في الفترة نفسها، الأمر الذي مكّن من معرفة دقائق النطق والافصح الصوتي؛ فمثل هذا الحافز هو الذي ولّد الرغبة في العناية بدراسة مثل هذه المؤلفات الغريبة بالرغم من محتواها الديني الاسلامي الذي لم يلق من العناية مالمقيه الجانب اللساني، والصوتي منه على وجه الخصوص لذا انصبت مجموعة من اهتمامات الباحثين المعاصرين على مثل هذه المخطوطات، وبرزت على اثرها أسماء لكبار الباحثين في حقل الدراسات «الآخميادية» كالبروفامليس «Alvaro Galmes» وأوطمار هيقي (Ottmer Hegyi) ومانويل ألبار (Manuel Alvar) وكونتزي (R. Kontzi) وغيرهم من الباحثين الذين كشفت نظرياتهم عن مدى أهمية الجانب اللساني في هذا التراث بالإضافة الى التأكيد والاجماع من طرفهم على بروز فعالية روح المقاومة عند الفرد المورسكي الذي أُنِي إِلَّا أَنْ يَجَابِهَ عصره بتحدياته الجسدية في ابتكار مثل هذا النوع من الثقافة المزدوجة والتي كان الهدف من ورائها إيجاد أنجع السبل للتواصل بين طوائف المورسكيين، ومحاولة تبليغهم بقايا عقيدتهم وتراثهم الثقافي حتى يتمكنوا من الحفاظ على مقوماتهم الشخصية كي تنقذهم من خطر الذوبان والاندماج؛ انه وجه آخر من وجوه المقاومة المستميتة لدى الفرد المورسكي لمجابهة ما يشبه المستحيل. ولعل الأقليات المورسكية تبقى فريدة من نوعها من هذا المنظور وذلك بعنادها من أجل البقاء حتى ولو اقتضت الضرورات كما هو الحال بالنسبة لها الى ابتكار هذا النوع من الافرازات حتى تكون بمثابة الهوية الناطقة باسمهم والمميزة لكيانهم المهدهد بالزوال. ولعل اختيار الحرف العربي في حد ذاته كمظهر خارجي للتبليغ من طرف المورسكيين، والذي يعد فارغا من محتواه الحقيقي، لكنه يبقى رغم كل ذلك بمثابة الرداء الاسلامي أو القناع الواقي الذي ما ينفك يلوح كعلامة على مدى التلاقي الجدلي بين الحرف العربي والبعد الروحي

عند الانسان المسلم المضطهد. انه لحضور دائم يذكر بأبعاد كبيرة يأتي في مقدمتها التشبث اليقيني بالعتيدة الاسلامية، والانتفاء الشرعي الى جماعة الأمة الاسلامية. ولعل تفشي ظاهرة الاقتراض من اللغة العربية وخاصة حين يتعلق الأمر بالشعائر الدينية ليعد في حد ذاته كظاهرة ملفتة للانتباه داخل هذا التراث المتبقي والمسجل بعزيمة المقاومة وهو عكس ما نجده في التراث الموازي المسيحي الذي عمد مؤلفوه بدورهم الى الاقتراض كأحد مميزات عصر النهضة لكنه من الموروث اللاتيني والاعريقي بوصفه المشرب الرئيسي لتنمية اللغات أو اللهجات المحلية. وقد انحسرت أقليات المورسكيين من هذه الناحية بعيدة عن هذا الشعور القومي تجاه مميزات عصر النهضة الأوروبية، وظلت تتعامل في صمت مع موروثها القديم من اللغة العربية أو اللغة الرومنشية متجاهلة لدوران عجلة الزمن، ومثل هذا الانكفاء الرامي الى الانغلاق هو الذي وُلد العناية لدى الدارسين المعاصرين كي يعيدوا النظر في هذا التراث لمعرفة أسرار تطور ظاهرة التواصل اللساني كما ساعدت هذه الظاهرة أيضا على كشف مقاييس التباين والتفاوت اللغوي عند كل من الأغلبية المسيحية التي كانت مسيطرة على الوضع آنذاك وبين تلك الأقليات المنزوية في جيوب التاريخ الجاثم على أطلال الذكريات.

ويأتي كل ذلك ليؤكد الأسباب التي جعلت المورسكيين لا يتفاعلون مع عوامل النهضة الأوروبية رغم تعايشهم مع أحداثها، كما يؤكد على خصوصية البعد النهضوي الأوروبي الذي كانت دعائمه الأساسية منصبة حول ضرورة انبعاث الفكر الغربي منذ أولياته حتى يوحد بين أطراف دويلات عصر النهضة لكنه أمام صمود المورسكيين أو تقوقعهم فان هذا النفس الجديد لم يتمكن من اكتساح هذه الأقليات التي أصرت على الانغلاق والقبول بحريّة التخلف كوجه آخر من وجوه المقاومة حتى ولو كانت سلبية من حيث تجديفها ضد تيار التاريخ.

لذا نجد لتأثير اللغة العربية في الآثار الأدبية المورسكية الحضور البارز حيث زحرت هذه الأعمال بالاقتراض والاشتقاق والاقتباس من كل ما

يمت بصلة للغة العربية وخاصة اذا تعلق الأمر بالمفاهيم الاصطلاحية
الفقهية وهو ما نلاحظه جليا على سبيل المثال في الملحمة المطولة المعروفة
«بقصيدة يوسف» التي سهر على تحقيقها ودراستها المؤرخ الاسباني
الكبير رامون مينينداث بيدال (Ramon Menendez Pidal) ونشرها
بغرناطة عام 1952 فظهرت ضمن هذا العمل الشعري الملحمي العديد
من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية داخل النسيج الشعري الأعجمي
فجاءت بمثابة التضمينات؛ وهي طريقة سلكها الكتاب المورسكيون في
جل أعمالهم الابداعية حتى ميزتهم عن باقي كتاب دويلات عصر
النهضة الذين التفتوا بشكل واضح الى موروثهم اللاتيني والاغريقي الذي
عُرف فيما بعد بالرصيد الكلاسيكي بالنسبة لموروثهم الثقافي.

الأهمية الأدبية للآثار المورسكية

لقد تميزت الآثار الأدبية المورسكية المتبقية الى يومنا هذا بمسحتها
الدينية كعلامة بارزة في مضامينها، وكوجه من وجوه الاستماتة في مقاومة
التيارات المضادة لكينونتهم، وهذا الموقف العنادي نجده يتضح بشكل
جلي خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادي الأمر الذي
سبب لهذه الآثار أن تُطوى في عالم النسيان ولم تحظ باهتمام الدارسين
المسيحيين الأوائل وأقصد الرواد في ميدان الاستشراق، بل نجد اهتمامهم
القليل يظل منصبا على بعض الجوانب الانسانية التي تبحث في ميادين
«الأيتمولوجيا»؛ أو «البيونيميا» أو الاشتقاقات أو الاقتراضات أو
بعض المصادر للأفعال، أو الدلالات أو التراكيب أو إعراب الجمل،
وبالاجمال كل ما يمت بصلة لما هو قديم في تاريخ ظهور اللهجات
الرُومنيثة المنحدرة من اللغة اللاتينية الأم.

لكن مع هذا الانحسار في ضيق الرؤية بالنسبة للآثار المورسكية
الأدبية فإننا نستطيع تسجيل حضورها منعكسا على بعض الأعمال
الأدبية البارزة التي ظهرت مع مطلع العصر الذهبي بالنسبة لتاريخ
الأدب الاسباني؛ فقد تجل التأثير المورسكي واضح المعالم في الأعمال
القصصية المعروفة بقصص الفروسية التي طبعت العصور الوسطى

بنزعتها الاحتفائية المشحونة بالخوارق والطقوس البدائية والخرافات، فنجد انعكاس الوهج المورسكي المقاوم واضح السمات على قصة «حكاية حب باريس وفيانا» (Historia de Los amores de Paris y Viana) التي تعتبر قمة قصص الفروسية في العصور الوسطى نظرا لانعكاس الروح الغنائية، على جوهر محتواها فنالت بذلك شهرة طبقت كامل أوروبا، كذلك نجد مثل هذا التأثير ملحوظ الأبعاد في قصة «كتاب المعارك» (El Libro de las Batallas) وهو بمثابة مجموعة من المرويات ذات الطابع الملحمي الفروسي المشحون بالتكثيف الأسطوري حيث أعطت قسطا وافرا لتروي أحداث المغازي الاسلامية أيام اندفاعاتها القوية التي قهرت الامبراطوريات واطاحت بالجبايرة كل ذلك ضمن إطار خُرَافي تقف فيه حكايات شيقة كقصة «القصر الذهبي»، وأسطورة «الإمام علي كرم الله وجهه» وتصديّه للتنين، وهذا العمل القصصي الشيق نجده ما يزال محفوظا بالمكتبة الوطنية بمدريد في مخطوط تحت رقم 3226 .. فمثل هذه الأعمال الأدبية التي شارك في نسج بنائها الدرامي الفكر المورسكي والذي اعتمدها لبعث الهمم الاسلامية وسط الأقليات المضطهدة حتى تقف كوجه من وجوه المقاومة التي تأتي الرضوخ للأمر الواقع. ومن منطلق هذه المآثر الخالدات التي تغذي في المسلم المورسكي روح المجاهدة والثبات اجتهد المبدعون في نسج قصص تاريخية ذات أبعاد حضارية تعود الى ايام ازدهار الوجود العربي الاسلامي على أرض الأندلس؛ من هناك نستطيع أن ندرج ضمن هذا التوجه الابداعي القصة المشهورة المعروفة بعنوان «حمّام زرياب» والمحفوظة اليوم ضمن مخطوطات التراث المورسكي بمكتبة الجمع الملكي للتاريخ بمدريد، وكذلك بمعهد الدراسات العربية تحت رقم 14 عدد 6؛ حيث تنطلق أحداث هذه القصة المورسكية من عاصمة الخلافة الأموية قرطبة وتأخذ أبعادها الحضارية من الموروث العربي الاسلامي الذي يعود الى الأيام الأولى من ظهور الدعوة كما أشار الى ذلك الدارس الكبير المستشرق ميخال آسين بلاثيوس في دراسته القيمة «الأصل العربي في القصة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اَشْهَدُ اَنْ لَا اِلَهَ اِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُوْلُهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يا بَرَاءُ مَا اَنْتَ كُنْتُ كُنْتُ اِنْ كُنْتُ كُنْتُ كُنْتُ
 زَابِحٌ كَالْبَسَلِ وَالنَّعْلِ فَا كُنْتُ اَنْ اَنْتَ
 لَمَّا نَتَّ اِنْ كُنْتُ كُنْتُ كُنْتُ كُنْتُ كُنْتُ
 اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ
 5 اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ
 لَمْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ
 اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ
 اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ
 لَمْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ
 اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ
 اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ
 اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 اَشْهَدُ اَنْ لَا اِلَهَ اِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُوْلُهُ
 كُنْتُ كُنْتُ كُنْتُ كُنْتُ كُنْتُ كُنْتُ كُنْتُ
 ۵۰ كُنْتُ كُنْتُ كُنْتُ كُنْتُ كُنْتُ كُنْتُ كُنْتُ
 اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ
 اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ
 ۵۰ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ
 اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ
 اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ
 اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ
 اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ
 اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ
 اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ اِنْ

مخطوط مورسكي «حمام زرياب» كتب باللغة «الأخميادية»

المورسكية «حمام زرياب» والمنشورة عام 1924 (2) لكن هذه القصة نجدها تكتسي مسحة محلية أندلسية مما جعلها تحفل بتسجيل العديد من المظاهر الاجتماعية والثقافية والسياسية لعاصمة الخلافة قرطبة أيام عزها وازدهارها؛ حيث تركز أحداثها الرئيسية في عهد المنصور بن أبي عامر الحاجب الذي سجّل الصفحات الطّوال من النصر والعزة لمجد الأندلس في أخريات القرن العاشر وبدايات القرن الحادي عشر الميلادي مما جعل أوروبا آنذاك تنعته «بسوط الآله» (El látigo de Dios) وتنعته المصادر التاريخية الأندلسية بكنية «الجلاب» الذي لا يعود من المعارك إلّا محملاً. ونجد كذلك من بين الآثار الأدبية المورسكية قصة «اسطورة يوسف» التي اعنتت بنشرها وتحقيقها ودراستها الألمانية «أورسلا كلينك» (Ursula Klenk) في عملها المعروف بعنوان (La Leyenda de Yusuf en Aljamiado Text (ed. und glossar Anejo de la Zeitschrift für romanische philologie).Tübingen 1972.

وتعرض هذه القصة بالسرد الى حياة يوسف عليه السلام مُسْتَلْهِمَةً من القرآن الكريم ونجد من بين الآثار المورسكية الهامة في مجال القصص ، قصة «العربي والجارية» التي توجد محفوظة اليوم بالمكتبة الوطنية بمدريد تحت رقم 4953. وتعرض هذه القصة بالتقريب الى وضع المرأة، ومجيء الاسلام وتمحور موضوعاتها حول الآية الكريمة ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سَأَلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾، حيث تتدخل العناية الربانية بواسطة النبي ﷺ لتنقذ هذه الفتاة المحكوم عليها بالقتل ظلماً وعدواناً من طرف أبويها الكافرين.

ونجد ضمن محفوظات الأقاليم المورسكية قصة «يعقوب الجزائر» وقصة «تميم الدار» مرافق النبي ﷺ في رحلته الى عالم الجن والذي يشبه دوره الى حدّ ما دور الخضر مع موسى عليه السلام.

(2) انظر Miguel Asín Palacios : El origen árabe de la novela Aljamiada «El baño de Zariab» en homenaje a R. Menendez Pidal. Vol. I. 1924, pp. 377 - 378.

مثل هذه الأعمال الإبداعية القصصية التي خلفها المورسكيون كذاكرة منسية في غياهب تاريخهم المشحون بالاضطهاد والمطاردة نجدها في معظمها تحاول أن تتحرق بوابات للامل أمام المصير المظلم بالنسبة لهذه الأقليات؛ وقد سجّلت الذاكرة الشفاهية للمورسكيين بالإضافة الى الأقاليم العديد من التماذج الشعرية الملتزمة هي الأخرى بجوهر القضية التي تتحدث باستمرار عن المصير المحتوم؛ فعرفت بذلك اللغة «الأخميادية» نوعاً فريداً من المشاعر المأساوية التي ما تفتأ تكرر النغمات الحزينة التي تشكو من القهر والعدوان كسمة بارزة من سمات ذلك العصر الذي لم يرحم مشاعرهم ولا انتأاتهم الحضارية ولا شرعية انتمائهم الى وطنهم الذي ليس لهم سواه. فهذا أحد الشعراء المورسكيين البارزين في القرن السادس عشر والذي رُحِّل الى الشمال الافريقي والمعروف باسمه المورسكي المجر على حمله «المعلم خوان ألفونسو» (El Maestro Juan Alfonso) ونحن نعرف أن كنية المعلم لا تلحق إلا أولئك الذين يشبتون جدارتهم في نوع ما من أنواع الخلق والإبداع وإلا ما كانت لتضفى على هذا المورسكي المشرّد لولا اعتراف العصر بموهبته الشعرية — فهذا الشاعر ما فتى يعلن صرخات مدوية في وجه الاسبان المتعصبين الذين خانوا العهود وعشوا بالمواثيق فيخاطبهم في احدى مقطوعاته الشعرية باللغة «الأخميادية» والتي ما تزال هي الأخرى محفوظة في مخطوط بالمكتبة الوطنية بمدريد تحت رقم 9067، جاء في احدى مقطوعاتها قوله :

... غراب ملعون انت أيها الاسباني

انت يا ذا الرؤوس الثلاثة

أيها الواقف على بوابة الجحيم⁽³⁾.

كما نجد لهذا الشاعر وقفات نثرية ينعت من خلالها المتغطرس الاسباني «بخائن العهد الذي أقسم أن يحفظه»، ويصب جام

(3) انظر — Manuscrito de la B.N. de Madrid n° 9067 citado por E. Saavedra

غضبه على رجال الدين زبانية محاكم التفتيش ورأس كل ضلال فينعتهم
«بالذئاب التي تسرق دون أي شفقة والذي طبع عملهم بسمة
الطاغوت والكبرياء والتنكيل والكفر والجبروت» وينعتهم بكل الأوصاف
الدينية البعيدة كل البعد عن كل ما هو انساني وروحاني ومتحضر.

أما ما ميّز هذه الآثار الموسيقية كظاهرة عامة هو شكلها العامي
الملفت للانتباه الأمر الذي فسح أمامها مجال الانتشار بين مختلف
الأوساط الاجتماعية من موسيقية مسلمة ومسيحية مما مهّد لها الأجواء
لتغطية حاجة الجماهير البسيطة من الثقافة فأصبحت لسان حال
الشعب وحازت بذلك ورقة الثقافة الشعبية التي تحولت الى عملة
متداولة تعبت بالمحظورات والحواجز المعلنة من طرف محاكم التفتيش؛ كما
اكتسبت تأشيرة الثقافة الشعبية أيضا والتي من مميزات الاساسية
حجب المؤلف وانفتاحها على أي نوع من أنواع الاضافات أو
التشذيبات أو التنقيح وهذا بحسب المناطق التي تتداول فيها... إنها
باختصار تحولت الى ثقافة الكل وهذا بطبيعة الحال يدخل ضمن
السياق الموسيقي الذي سوف نشير اليه فيما بعد كأحد مظاهر
الثقافة الموسيقية آنذاك؛ ألا وهو اللجوء الى أسلوب «التقيّة» لاتقاء
شرّ من أحسنوا اليهم في يوم ما..! وبهذا أصبحت معظم الآثار
الابداعية الموسيقية المكتوبة باللغة «الألحميادية» مجهولة المؤلف
واستحالت الى ملك مُتاح الى الذاكرة الجماعية، أما طابعها العام فهو
السهولة المتناهية من حيث الأسلوب والأداة وبعدها الكلي عن أي
مظهر من مظاهر الحذلقة والتصنع الذي هو من خصوصيات التأليف
الفردية.

«الألحميادو» كمظهر من مظاهر الثقافة الموسيقية

لقد خلّد الموسيقيون رغم القهر والحصار مجموعة من الآثار الفكرية
والأدبية، نستطيع حصر محاورها الرئيسية في المجالات التالية :

1 — هناك كتابات كثيرة ذات الموضوعات الدينية وتشكل هذه الأخيرة نصف التراث المتبقي من ذاكرة المورسكيين أو أكثر وذلك نظرا لدور الوازع الديني الذي اعتمدته الأقليات المورسكية كأحد أسلحة المقاومة لرد الهجمة الصليبية الشرسة على كياناتهم الحضاري ومقوماتهم الروحية الاسلامية.

2 — وهناك نوع ثان من الكتابات المورسكية وهي ذات الطابع القصصي الذي استمد مادته من تاريخ الفتوحات الاسلامية، وبطولات المغازي التي لعب فيها الجانب الأسطوري والخرافي أهم الأدوار لاجراجها من حيز الواقعية الى ما يشبه الواقعية المثالية؛ وكل ذلك مبعثه اللاحاح الدائم من أجل إيجاد معادل موضوعي للبقاء والاستاةة في وجه تحديات الطغيان الصليبي الذي يحاول بثتى الأساليب إبادة كينونة كل ما هو غير مسيحي.

3 — وهناك كتابات ذات الموضوعات الجدالية والتي خصصها المورسكيون للدفاع عن عقيدتهم ومحاولة اظهارها على عقيدة خصومهم، كذلك محاولة إثبات صلاحية البقاء لما هو أصلح كتتمجيد للشريعة المحمدية بأنها خاتمة الأديان وأن نبي الاسلام هو رسول وما أنزل عليه كان الحق من رب العالمين.

4 — أما النوع الرابع والأخير تقريبا فهو الذي اختص باظهاره الفقهاء الباقون من تشريعات اسلامية تنظم حياة المورسكيين المسلمين المحاصرين في دار الغربية البعيدة عن دار الاسلام الأمر الذي جعلهم في أمس الحاجة الى من يأخذ بيدهم ليطلعهم على تعاليم دينهم وديانهم.

وكخلاصة لما سبق ذكره نستطيع القول إن الكتابات ذات الموضوعات الدينية والتي يأتي في مقدمتها الاهتمام الشديد بالقرآن الكريم هو الموضوع الذي حاز القسط الأوفر من اهتام المورسكيين : هذا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ شَذَانِي وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
 الْمِسْمِيَّةُ يَسْتَعِينُ بِاللَّحْمِ مَسْكُوبَةٌ فَتَسْلِيهِ مَسْأَلَةٌ لِقَاكَ رَبِّ سَيْفًا
 الْمِسْمِيَّةُ الْمَسْمُومَةُ بِإِسْمَاءِ نَسَاءٍ مَسْأَلَةٌ الْمَسْمُومَاتِ
 الْعَجِيذَاتِ لِقَاءِ مَسْأَلَتِهَا تَسْلِيَةً مَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةِ الْمَسْأَلَةُ
 لِقَاءِ الْمَسْأَلَةِ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ
 مَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةِ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ
 مَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةِ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ
 مَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةِ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ
 مَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةِ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ
 مَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةِ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ
 مَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةِ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ
 مَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةِ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ
 مَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةِ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ
 مَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةِ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ
 مَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةِ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ
 مَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةِ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ الْمَسْأَلَةُ

٤٤
 ٤٥

نموذج من مخطوط مورسكي باللغة الألفبائية ما يزال محفوظا في معهد
 الدراسات العربية بمديرية تحت رقم L 1 ن°

بالإضافة الى الجوانب الأدبية الأخرى والتي سبق وأن أشرت الى بعض العينات منها في المجال القصصي على وجه الخصوص.

الكتابات المورسكية الدينية

ان ما يميز هذه الآثار الفكرية المنحدرة إلينا من ميراث المورسكيين هو طغيان الكتابات الدينية فيها على بقية الأنواع الأخرى؛ وذلك لما في دور الدين من قاسم مشترك يربط بين مختلف الأقليات المورسكية، والتي ترى فيه أحد المقومات الأساسية لابرار شخصيتها والذي في متدوره وقايتهم من مغبة الانسلاخ والذوبان والرضوخ لازادة الخصم العاقي. لذا برزت الكتابات الدينية طافحة على سطح أغلبية الآثار الفكرية المورسكية وقد حظي بالاهتمام على رأس هذه الكتابات الدينية كتاب الله جلّ وعلاً المنزل على نبيّه محمد ﷺ؛ فنحول بذلك القرآن الكريم الى الينبوع الذي لا ينضب بالنسبة لحياة المورسكي الذي وجد فيه ضالته ومرشده ومستقر أمنه وأمله في جو انعدم فيه بصيص الرجاء من يد قد تمتد لانقاذهم من عدو تربص بهم من كل الدوائر. من هنا تحول القرآن الى المصدر الحيوي الذي يخط للمورسكي طريق حياته في الدنيا والاخرة، كما اعتمده كتشريع يسّن له أنماط المعاملات والسلوكات التي تضمن له حرية البقاء وفسحة الأمل.

لكن للحصار المسيحي المشدد على رقابهم ما يقوله في هذا المضمار إذ تمكن من إحداث الفجوة المُخلّة بالتقاء المورسكي مع كتابه المقدس حيث عزههم عن التخاطب المباشر مع القرآن لأنه أعدمهم وسيلة الالتقاء معه وهي اللغة العربية الأمر الذي أوقع المورسكيين مكرهين إلى اللجوء الى وسيلة الترجمة، أو ما ترجم من نسخ قرآنية يعود ظهورها كما نعرف الى تلك الترجمات التي بدأها أحد رهبان كلوني (Cluny) المعروف باسم بيدور المكرّم (Pedro el Venerable) «— 1092 — 1156» والذي يتفق ومناسبة زيارته الى اسبانية عام 1141 حيث كلف على إثرها روبرتو دي كيطون (Roberto de Ketton) بترجمة القرآن الى اللغة

اللاتينية وبهذه المبادرة الأولى عرفت أوروبا أول ترجمة للقرآن والتي كانت حافزا لظهور ترجمات أخرى تعاقبت فيما بعد⁽⁴⁾.

إلا أن المورسكيين بحكم التزامهم بمبدأ التقية، وابتكارهم للغة جديدة في التخاطب بينهم جعلهم يحرصون على توفير ترجمات الى اللغة «الآخميادية» حتى تكون مفهومة من طرف جميع المورسكيين، وتكون بمثابة الوسيلة الوحيدة المتاحة أمامهم للولوج الى عالم القرآن، لأن اللغة العربية توشك أن تنقرض من حياتهم بحكم الظروف القاسية كحظرها ومصادرتها واتهام المتلبس بها بالجريمة العظمى.

فمثل هذه الظروف هي التي أوجبت عليهم اعتماد أسلوب «التقية» انطلاقا من التوجيه القرآني الذي يراعي قبل كل شيء اليسر والأمان للمسلم وعدم الالتقاء بنفسه الى التهلكة إذا احتدم الصراع وحل فيه الكفر عن الايمان، ويوضح هذا المبدأ في جلاء وشرح المخطوط المورسكي المحفوظ اليوم بالمكتبة الوطنية بمدريد تحت رقم 9656 حيث يفصل القول في الأسباب والدوافع التي ألجأت المورسكيين الى اتباع أسلوب التقية كحل لاختيار معه.

من هنا نجد القرآن يتحول الى الكتاب الاساسي بالنسبة لحياة المورسكيين ومن أجل هذه العناية المتزايدة حظي بالعديد من الترجمات الفريدة من نوعها الى اللغة «الآخميادية» وهو الأمر الذي فتح الباب أمام العديد من الدارسين المعاصرين لعقد مقارنات علمية بين مختلف الترجمات وذلك مثل ما فعلت الباحثة الاسبانية لوصادا كامبو (T. Losada Campo) في كتابها القيم «دراسات حول النصوص القرآنية المكتوبة باللغة «الآخميادية» والمنشور ببرشلونة عام 1977. (Estudios sobre Coranes Aljamiados)

كذلك فعل الباحث الانجليزي والاستاذ بجامعة لندن هارفي L.P. Harvey إذ قدم بحثا قيما في هذا المجال، كما كان له الفضل أيضا في

(4) انظر Teresa Losada Campo : *Estudios sobre Coranes aljamiados*, Ed. Universidad de Barcelona, 1977, pp.11 - 12.

اعداد دراسة لاحدى المخطوطات المورسكية المعروفة بعنوان «غلام أريفلو والأدب الأخمياادو» (El Mancebo de Arévalo y la Literatura Aljamiada)؛ وقد نشر هذا البحث ضمن منشورات الدراسات الدولية المخصصة للأدب الأخمياادو والمورسكي . وقد لاحظ الدارس الانجليزي مدى أهمية مثل هذه الترجمات المورسكية للقرآن، ومدى مفعولها في الأوساط المورسكية التي أصبحت بمعزل عن كل ما يمت بصلة الى تعاليم الدين الاسلامي، ففتحت بهذه الوسيلة الضيقة والمحدودة كوة لتطلعنا على قيمة المعاناة التي كانت تنوء بحملها هذه الاقليات المضطهدة، والتي تنم ثقافتها المحدودة عن ظاهرة التقهقر الثقافي الذي يعاني منه الفرد المورسكي المحروم من كل ما من شأنه أن يغذي إحساسه بالمواطنة والانتفاء. فيذكر الباحث الانجليزي في دراسته نصا من المخطوط المورسكي الذي سبق ذكره يؤكد فيه الحاجة الماسة الى ضرورة اللجوء الى مثل هذه الترجمات حتى وإن كانت دون المستوى وذلك نتيجة ابتعاد المورسكيين الكلي عن مصادر الثقافة العربية الاسلامية، وجهلهم للغة العربية فيقول النص المورسكي المكتوب باللغة «الآخمياادية» لقد كانت غيرتهم على التمسك بالدين الاسلامي في هذه الجزيرة المتجهمّة والمظلمة هي التي جعلتهم يعتمدون مثل هذه الترجمات وذلك نظرا لفقدان المتفهمين في العلم أيضا» (5).. ثم يواصل المخطوط قائلا : «إن الذين يعيشون اليوم ويفضل الله سيواصلون الى زمن آخر لقد افتقدوا النور والمدارس واللغة العربية ..» (6). إن الدافع الذي فرض على المورسكيين اعتماد مثل هذه الترجمات القرآنية وحفظها وتحفيظها واستظهارها لامسوغ له سوى التشبث بروح المقاومة قصد المحافظة على قيمهم الروحية ومعالم شخصيتهم الحضارية ومحاولة الظهور المستمر بمميزات تبرزههم داخل مجتمع غير متجانس معهم، فكل ما يرغبون في الحصول عليه هو بقاؤهم على دين ملتهم مع حذرهم الشديد من كل ما

— Harvey L.P. : «El Mancebo de Arévalo y la Literatura Aljamiada» actas del coloquio internacional sobre la literatura Aljamiada - Morisco Oviedo 1972, Ed. Gredos. Madrid 1978, pp. 68-70. (— 6 — 5)

من شأنه أن يورطهم في مظاهر البدع التي قد تصّلمهم عن سواء السبيل مما حدا بهم الى الوقوع في التزمت الشديد المنغلق، لكن إقدامهم على الاستعانة بمثل هذه الترجمات قد يعدُّ في حد ذاته أحد مظاهر البدع لأن اللغة «الأخميادية» ما أظنها تسعفهم على توصيل بلاغة القرآن الى أفهامهم، وخاصة أنها لغة محدودة الانتشار وتعد من مخلفات العصور الوسطى. الا ان تشبثهم بها وعدم استجابتهم لمظاهر التغيير اعتبروه من أسلحة المقاومة. وفي آخر المطاف تبقى مثل هذه الأقليات الحريصة على التوقُّع لا ذنب لها سوى أنها مُرهقة بطول الحصار بالحديد والنار وسط مجتمع يتلمظ حقدًا وكراهية لكل ما هو غير مسيحي من هناك وكما يقول الباحث الانجليزي هارفي (Harvey) «إنهم أصبحوا بمثابة الكائنات التي تنتمي الى العصور الوسطى إلا أنها غارقة في محيط عصر النهضة فلفظوا في شواطئه المضادة لكل اصلاح؛ لكنه مع كل ذلك يبقى الأدب المورسكي ينطوي على بعض الخصوصيات التي تجعل منه ظاهرة ثقافية معبرة عن عصرها»(7).

من هنا يتجلى أمامنا حرص المورسكيين الذي بدأت تبشيره منذ استسلام غرناطة عام 1492 لينصبَّ هاجسهم على ترجمة كل ما هو ديني الى اللغة «الأخميادية» أو تقريب مفاهيمه من الاقليات المورسكية حتى لا تفقد رباطها الحضاري مع موروثها، لأن العلاقة أو صلة القرابة بين الطائفتين المورسكية والمسيحية نجدها تعرف انفصاما يكاد يكون نهائيًا على أعقاب انفجار ثورة جبال البشارت الشهيرة (Alpujarras) الواقعة بضواحي غرناطة وذلك منذ عام 1568 بسبب صدور المرسوم الملكي الممهور من طرف الملك فيليب الثاني والذي أفصح محتواه عن مجموعة من المحظورات أو التراجعات بالنسبة للحرية المعطاة الى المورسكيين في معاهدة الملكين الكاثوليكين إيزابيلا وفرناندو» فصدر الأمر مثلاً بمنع المورسكيين من التحدث باللغة العربية، ومنعهم كذلك من ارتداء الملابس العربية الاسلامية المميزة لهم، ومنعهم من امتلاك أو

(7) المصدر السابق.

الذهاب الى الحمامات لِأَنَّ النظافة تعد من خصوصيات المجتمع الاسلامي لذا توجب الوقوف ضدها، كذلك منعهم من إقامة الاحتفالات الدينية أو الدنيوية كالأعياد والأعراس وعدم احيائها بكل ما هو غير مسيحي، مع تأكيد المرسوم على إلزام المورسكيين بإبقاء بيوتاتهم مفتوحة الأبواب أيام حفلاتهم حتى يرى ما يقام فيها، كذلك ألح المرسوم على وجوب إبقاء ابواب المنازل مفتوحة أيام الجمعة للتأكد من عدم ممارسة المسلمين المورسكيين لفريضة الصلاة، كذلك جاء المرسوم يفرض عليهم ترك أسمائهم العربية الاسلامية واستبدالها باسماء مسيحية، ونتيجة هذه القرارات التعسفية المححفة اندلعت ثورة جبال البشارات تحت قيادة بطلها المجاهد المكنى بابن أمية والتي منها وُضع الحد الفاصل تقريبا للعلاقة بين المسلمين المورسكيين والمسيحيين وفسح المجال أمامهم للصدام المستمر الأمر الذي جر على المورسكين أن يخيروا بين أمرين أحلاهما مر كما يقال فإما قبول مبدأ التعميد والدخول في الديانة المسيحية أو التهجير إلى أرض غير مسيحية ومن هذا التاريخ نستطيع إنجاز مسيرة العذاب التي عرفها المصير المحتوم المورسكي في ثلاث مراحل حاسمة :

فالمرحلة الأولى امتدت منذ استسلام غرناطة عام 1492 إلى غاية 1499 وهي المرحلة التي أوكل فيها أمر المورسكيين إلى رحمة الكاردينال هيرناندو دي تالابيرا (Hernando de Talavera) الذي عمد الى سياسة اللين مع المنتصرين من المورسكيين حتى يشوق البقية الباقية إلى اتباع نفس المصير، وحتى يلهمهم لنسيان عقيدتهم معتمدا في كل ذلك على سياسة الرفق الملفوف في ثوب المكر والمراوغة.

أما المرحلة الثانية والممتدة ما بين 1499 إلى غاية 1501 فقد ظهر فيها الكاردينال الشرير خيمينيث دي ثيزنيروس (Jimenez de Cisneros) الذي على يده عُرفت أعتى مراحل المورسكية وذلك لانتهاجه سياسة العصا الغليظة كما يقال حيث فضل أسلوب فرض الأمر الواقع والتنصير الاجباري والمراعبة والاضطهاد والقتل والتشتيت وإزالة كل ما من شأنه أن يذكر المسلمين بماضيهم، لقد كانت مرحلته من أتس ما تجرعه

المورسكيون من ويالات، ويكفي للتدليل على تعصب هذا الكاردينال أنه كان قائد الحملة التي أرادت استئصال المورسكيين حتى من ديار الاسلام، إنه الضارب لمدينة وهران والممعن في أهلها بالقتل والتشريد.

أما المرحلة الثالثة والأخيرة فإنها قد امتدت إلى غاية القرن السابع عشر والتي ظهر فيها دور الملوك مدعما بمحاكم التفتيش التابعة للكنيسة الكاثوليكية المتعصبة حيث عمدوا إلى طمس كل المعالم الحضارية العربية الاسلامية كتحويل المساجد إلى كنائس وتهجير المورسكيين إلى مناطق شمالية بعيدة عن مسقط رؤوسهم وباختصار محاولة تغيير الخارطة المورسكية مع الشروع في عملية الحرق التاريخية لكل ماهو ثقافة عربية اسلامية وقد شهدت مدينة غرناطة أشهر حريق تاريخي للكتب العربية الاسلامية وذلك في ساحتها المعروفة باسم باب الرملة، اذ تواصلت النيران فيها أياما وهي تلتهم حصاد الفكر ولم ينبج من هذه الجريمة التاريخية إلا بعض المؤلفات الطبية التي حولت لتدعم جامعة (Alcala de Henares) بالشمال.. ومن أجل هذه المعاملة الاجرامية وغيرها شرع علماء الاسلام مايجول للمسلمين ترك ديار الكفر هروبا بدينهم وقد كانت لفتوى الفقيه الونشريسي صدى كبيرا في أوساط المورسكيين الذين استجاب بعضهم الى ندائها فالتحق ببرّ العدة وضمن ما يشبه سلامته. وتعاقت على إثر هذه الفتوى مجموعة من الفتاوى الأخرى التي تنص على تحريم سكنى المسلمين ببلاد النصرارى وهو حل قاصر كما يرى لأنه لبي رغبة محاكم التفتيش. وساعد على إطفاء شعلة المقاومة ولذلك اعترض مجموعة من المورسكيين على مثل هذا الاجتهاد القاصر واعتبروا أصحابه ميسرّ لهم التفوه به لأنهم يعيشون بعيدا عن موطن الاحداث، والشعور بالمواطنة تجاه الأرض لا يعينهم في شيء وقد تجاهلوا أن حب الاوطان من الايمان، لذا كان الامر صعبا على بعض المورسكيين كي يغادروا بمثل هذه السهولة مواطن حبهم وعيشهم وقد أجاد الكاتب الاسباني الشهير ميخال دي ثيريانتس Miguel de Cervantes التعبير عن هذا الشعور في كتابه الخالد دون كينخوطي دي لامنتشا (Don Quijote)

(de la Mancha)، والمعاصر للاحداث فجاء في الجزء الثاني ص 54 هذا النص الذي انتحله ثيرياتس على لسان من كان أعلم الناس في زمانه ألا وهو المفكر الأندلسي المسلم محمد بن أحمد الرقوتي المرسي المكني بأبي بكر والذي يقول في حقه المؤرخ الاسباني الكبير رامون مينندث بيدال (Ramòn Menendez Pidal) في كتابه «التاريخ العام للآداب الاسبانية» وهو بصدد الحديث عن أعمال الملك الفونسو العاشر المعروف بالحكيم (1252 — 1284) في حقل نقل العلوم والآداب الأندلسية الى أوروبا اذ عرف هذا الملك قدر العالم الرقوتي وأوكل إليه عام 1269 مهمة الاشراف على دار الترجمة التي أوقفها عليه في مدينته مرسية، وإذا كانت المراجع الاسبانية تشيد بهذا العالم الجليل فاننا نجد المصادر الأندلسية بدورها تكشف عن مواهبه وقد رأت هذا الرجل الذي يسميه مينندث بيدال أعلم أهل زمانه، فيقول ابن الخطيب في احاطته ما نصه في حق هذا العبقري الذي اختاره ثيرياتس ليحمله رسالة الشعور بالمواطنة على لسان المورسكيين المضطهدين.. فيقول ابن الخطيب «نسبته الى رقوطة (Ricate) بلدة صغيرة تقع على مقربة من مرسية على الضفة الغربية لنهر شقورة (Segura) عالما طبيا مهندسا، موسيقيا رياضيا فيلسوفا.. آية الله في معرفة الألسن يقرىء الأمم بألستهم فنونهم التي يرغبون في تعلمها. شديد البأ وترفعا متعاطيا. عرف طاغية الروم حقه — يقصد الفونسو العاشر الملك الحكيم — لما تغلب على مرسية فبنى له مدرسة — هنا يتفق مع نص مينندث بيدال — يقرىء فيها المسلمين والنصارى واليهود ولم يزل معظما عنده فطلب منه ان يتنصر فأبى»⁽⁸⁾. وهذا العالم الجليل الذي تنافس في علمه ملك النصارى وملك غرناطة نجد ابن الخطيب يوضح مصير اختياره حيث يقول : وطلب سلطان المسلمين ثاني الملوك من بني نصر — يقصد محمد الثاني ملك غرناطة المعروف بلقب الفقيه (671 — 701)، (1272 — 1302) — واستقدمه وتلمذ له. واسكنه في أعدل البقع

(8-9) لسان الدين بن الخطيب : الاحاطة في أخبار غرناطة تحقيق عبد الله غنان الجزء 3، القاهرة 1976، ص 67 — 68.

من حضرته. وكان الطلبة يغشون منزله المعروف له، وهو بيدي الآن — أي يملكه ابن الخطيب — فتعلم عليه الطب والتعاليم وغيرها. اذ كان لا يُجارى في ذلك، وكان قوي المعارضة مضطعاً بالجدل وكان السلطان يجمع بينه وبين مُنتابي حضرته — قصد امتحان علمهم — ممن يقدم منتحلاً صناعة أو علماً، فيظهر عليه لتمكنه وآلته» (9). وقد أسهبنا في ذكر هذه الحقائق حول هذا العالم الجليل الذي يعود الى القرن الثالث عشر الميلادي لنبين مدى أهميته التي جعلت كاتباً كثيرانتمس في أعظم مؤلفاته التي تعود الى القرن السابع عشر الميلادي يخصه بالذكر لينتحل على لسانه هذا النص المعبر عن مدى ارتباط المورسكي بأرضه الأندلس، فيقول الرقُوطي مخاطباً الملك سانتشو الرابع الملقب بالشجاع (Sancho IV El Bravo) (1284 — 1295) الابن المتمرد على أبيه الملك الفونسو الحكيم: «أينما تريدنا أن نكون سوف نبكي اسبانيا لأنها مهبط ولادتنا وموطننا الأصلي، فلا يمكن اذا لأي بقعة من احتضان حظنا المنكود حتى ولو كانت أرض البرابرة ولا أي مكان من افريقيا قد يستقر بها قرارنا أو يتم على أرضها استقبالنا. فهناك سيكون رفضنا وستكون إهانتنا، إننا لم نعرف طعم السعادة إلا ساعة افتقادنا اليها، وإننا لنحیی بالأمل الكبير الذي يُمنينا بالعودة الى اسبانيا. وخاصة أولئك الذين يعرفون اللغة وما أكثرهم مثلي سوف يعودون اليها وهناك سيستقر أزواجهم وأولادهم. إنه لكبير الحب الذي يُكونه اليها، والآن بوسعي أن أعترف وأفصح عما يمكن أن يقال : انه للذيذ حب الوطن» (10).

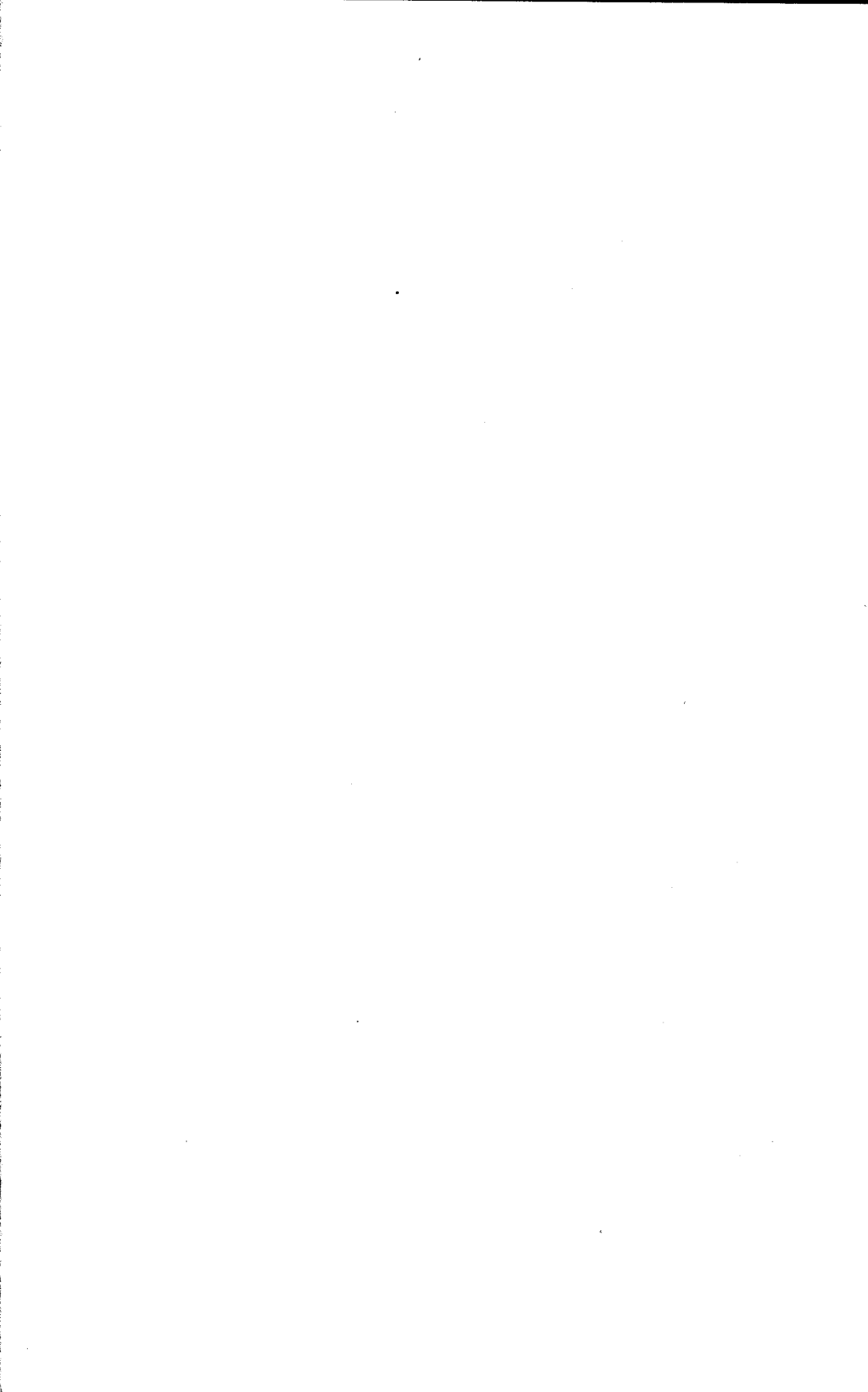
وبعد هذه الجولة العاطفية مع نص ثيربانتمس الذي يقر في مضمونه بروح المواطنة لدى الفرد المورسكي ويعترف له بحق الوجود على أرض اسبانيا تجدنا ملزمين بطي هذا الفصل من الثقافة المورسكية والتي يمكن ملاحظة ما مَيَّز جانبها الديني أنه كان شهادة حيّة على روح التحدي

لظروف التاريخ وحتمية الأقدار، وأن هذا الجانب من التراث الموسيقي ليعد من الأهمية بمكان بالنسبة لذلك العهد، كما يعتبر مجالا رحبا بالنسبة للدراسات المعاصرة التي أبهرت باحثها قدرة الموسيقي على خلق المستحيل كاعتماده الترجمة القرآنية إلى لغة تعكس في حيزها المعنوي جسامة الشتات الذي يعاني منه الموسيقي الذي عمل ما في وسعه وهو يترجم القرآن أن يبقى على النص الأصلي الى جانب ترجمته حتى يضمن ولو بصيصا شاحبا قد ينبعث من تلك الأحرف العربية التي يتمسحُ عليها الموسيقي عساها تبعث فيه أمل عودة ما عصفت به يد الحدثان. وبهذه الطريقة تمكّن الدارسون المعاصرون من الوقوف على مختلف أساليب الترجمات «الأخميادية» وذلك بمقابلتها مع بعضها ومع أصولها فممكنهم ذلك من التحقق من قدرة ما بقي من فقهاء على ظهر شبه جزيرة ايبيرا، وعلى مدى فهمهم للغة العربية واللغة الرومشتية وكذلك المستوى الثقافي الذي بقى من الثقافة الأندلسية في زمن القهر والاضطهاد.



الفصل السادس

بعض مظاهر الانتقام الصليبي من جماعة
المورسكيين بالجزائر على عهد الأتراك
العثمانيين



قبل أن نلج هذا الموضوع الشاق والخطير يجب أن نضع في الحسبان أن تاريخ استسلام غرناطة عام 1492، واكتشاف العالم الجديد كان لهما الأثر الفعال في بروز الشخصيتين الطاغيتين ايزابيلا وفرناندو الكاثوليكين، حيث كان لقرانهما السياسي والمصلحي ما دفع بهما لتوحيد شطري المملكة المسيحية وإظهارها بصبغة دينية ميّزتها عن باقي ممالك عصر النهضة وتحوّلت لها ريادة العالم الأوروبي الذي كان يحتفظ بمفاتيح مشاريعه التوسعية في حجر البوابات بمعلم الكنيسة المقدسة. كما كان لأحداث سقوط القسطنطينية قبل استسلام غرناطة بأربعين سنة في يد العثمانيين الأتراك ما أوغر صدر الحقد الصليبي على كل ما من شأنه أن يمتدّ لغير الصليب بأي صلة. من هناك كانت بدايات المأساة، ومن هناك تفجرت محفزات النعرات العدائية للشعور الديني المبيّت في قلوب عتاة الصليب حتى يثاروا لعاصمة الامبراطورية البيزنطية وللثان قرون خلت من الازدهار الحضاري العربي الاسلامي على أرض شبه جزيرة ايبيريا. ومن هناك أيضا حقّق لحماة الصليب بأن ينعنا عبر التاريخ باسم الملكين الكاثوليكين (Los Reyes católicos)، وينطلقا معا في طموحاتهما الدينية والسياسية لتشييد الامبراطورية الالهية بالغرب الأوروبي لمواجهة الامبراطورية الاسلامية العثمانية بالشرق، لذا لا يمكننا أن نستغرب مما حصل بين القوتين العظيمين آنذاك في المعركة الفاصلة التي

دارت رحاها في حدود 1571.

ان الحماية الدينية التي طبعت الامبراطورية المسيحية الاسبانية جعلت شغلها الشاغل وهاجسها الناбус عبر حياتها يتطلع دوما الى أمنية الخلاص مما هو غير مسيحي وذلك بالسهر المضني على ما يدعى بتطهير الدم المسيحي من كل بقايا العصور «الخُلاسية» (Mestizaje) التي زعموا أنها أرهقت شبه جزيرة ايبيرا لذا كان لظهور رجل ديني مثل الكاردينال فرانشيسكو خيمينيث المعروف بشيزنيروس (Francisco Jimenez Cisneros) فيه أكثر من ضرورة بل كحتمية تاريخية لحمل مشعل الانتقام ورفع صولجان الصليب على أنقاذ الأبرياء والمستضعفين في الأرض، وبخاصة بعد موت الملكة الكاثوليكية ايزابيلا القشتالية حامية حمى الصليب. فكان لظهور هذا الشخص الموعد بالنسبة للكنيسة، والذي أقدم على جرائم لم يقدم على مثلها رجل دين من قبل ولا من بعد في حق المغلوبين من المسلمين على أرض الأندلس مما أجبرهم على ركوب روح المقاومة الراضية والمسجلة في تاريخ 1500 و1568 و1570 وما بعدها من تواريخ الانتفاضات المورسكية التي أفضنا في شرح أحداث بعضها وابرار مسيبتها.

لقد تغذى ثيزنيروس لبن الحقد في كنيسته على كل ما هو إسلامي ومن هناك خامرته فكرة «الحرب المقدسة» (Guerra Santa) ليعلن مشروعيتها على كل ما هو غير مسيحي ففسح المجال بذلك أمام الرغبات الجامحة للملوك في أحقية التوسع على حساب الآخرين فأعلنت على اثرها نواقيس الكنائس أوار الحرب المقدسة لمطاردة المسلمين الفارين من الاندلس الى أرض المهجرة، وبالتحديد أرض المغرب العربي الاسلامي الذي سيصبح مسرحا لأعنف الصدام بين الملتين وكان تسجيل أول حضور صليبي على أرض المغرب الاسلامي، أو على أرض الكُفَّار (Infeles) كما تقول مصادرهم في تاريخ 1496 حيث استقرت أول قاعدة عسكرية أمامية بقيادة بيدرو دي استوينيان (Pedro De Estopiñan) باسم سيده دوق مدينة سيدونيا (El Duque de Medina

(Sidonia) فاستولى على مليلة المغربية وعلى أعقابها اندفعت حملاته لتتوسج بانتصارها المقدس على المسلمين والتمثل في الاستيلاء على المرسى الكبير بضواحي وهران عام 1505. وبعد هذا التاريخ مباشرة وبالتحديد في عام 1508 تمكن القائد الكوند بيدرو نافارو (El Conde Pedro Navarro) من الاستيلاء على الصخرة المعروفة ببيلت دي لاقوميز (Velez de la Gomera) وهي عبارة عن جزيرة جد ممنة نظرا لتحصيناتها الطبيعية وتابعة لمقاطعتي سبتة ومليلة، وفي الوقت ذاته تمكن البرتغاليون الغزاة من الاستيلاء على مملكة فاس واحتلال سبتة وطانجة.

وقد ساعد الحضور المسيحي الاسباني ببقاع المغرب الاسلامي في توغله السريع في العديد من قواعده مظاهر الانشقاق والضعف الذي كانت تعاني منه دويلات المنطقة فعلى اثر سقوط فاس مثلا نجح الأمير يحيى أخ ملك فاس يرفع راية الانشقاق ويعلن ولاءه للنصارى مقدما مقابل ذلك العديد من التنازلات التي يأتي في مقدمتها الحياد ومساعدة المدد المسيحي على التوغل في أرض الجزائر الأمر الذي شجع الكاردينال ثيزنيروس على تقديم كل أرصدة كاتدرائية طليطلة العظمى كهبة سماوية لتمويل الحملة الصليبية ضد وهران، كما قدم البابا بدوره كل الأرصدة المعدة لتمويل هجمة الصليبيين على أرض المقدس معتبرا ما تقوم به الامبراطورية المسيحية الاسبانية يدخل في اطار المخططات الصليبية المعلنة على دار الاسلام.

ففي ربيع عام 1509 تقدم القائد بيدرو نافارو رفقة الكاردينال ثيزنيروس تجاه مدينة وهران فوقعت تحت أسرهما وواصلوا زحفهما السريع والمباغت فاحتلوا ربوة الجزائر وبجاية، وجزيرة لاقولات — قرب مدينة تونس — وكذلك طرابلس وقد ساعدهما في زحفهما السريع على مناطق بلاد المغرب الاسلامي ما كان — يعاني منه الوضع السياسي لدويلات المنطقة التي كانت ترزح تحت نير الضعف والانحطاط فكانت السلطنة الحفصية بتونس تحتضر، ومملكة بني عبد الواد بتلمسان تعاني من التطاحن الداخلي، أما فاس فهي على مشارف الزوال، كما عرفت هذه الدويلات تراجعاً اقتصادياً ملحوظاً انتهى بانقراض التجارة

الافريقية جنوبا وتحولها شطر مصر والمشرق بعد أن كانت معينا لا ينضب من الذهب الافريقي الذي يصبّ في أسواق ديولات المغرب الاسلامي، كما زاد هذه المناطق بلّة النزوح المستمر والمكثف للاجئين المورسكيين الذين غصّت بهم عواصم دول المغرب فأفقدوها توازنها الاقتصادي والديموغرافي، هذا بالاضافة الى الصراعات الداخلية التي لم تبق على الرجال الأكفاء، كما كان للكوارث الطبيعية دورها في تفكير المنطقة وتحلفها. أما المجالات الثقافية وكساد أسواقها فحدّث ولا حرج عن ضحالة مردودها وخاصة أن هذه الديولات الغاربة قد انكفأت عن ذاتيتها المنهزمة ووضعت عصابة على عينيها حتى لا ترى كل مستجدات عصر النهضة الأوروبية ففرضت عليها الختمية التاريخية أن تبقى على هامش التاريخ الامر الذي سهل مهمة الامبراطورية المسيحية الاسبانية كي تتسلم مفاتيح سلطنة بني عبد الواد بتلمسان بدون مقاومة تذكر وكذلك سلطنة بني حفص لتجعل من جامع الزيتونة فيها اسطبلا للخيل، كما تقدمت لها بالولاء اللامشروط على طبق من ذهب بالجمان كل المقاطعات شبه المستقلة التي تحكمها بعض العائلات المتسلطة والواقعة على سواحل البحر الابيض المتوسط.

لكن هذه الانكسارات الاسلامية لم تغرق في سبات القدر المحتوم بل نجد على أعقاب وفاة الملك الكاثوليكي فرناندو عام 1516 يتمكن بعض الاشراف من المسلمين في مدينة الجزائر من اعلان عصيانهم ضد المملكة المسيحية الاسبانية ويشعلون نار الانتفاضة الشعبية، لكن ساعة وقوعهم تحت وطأة الخطر المؤكد أعلن كبير المقاومة انذاك الشيخ سليم تومي عميد اشراف الجزائر صرخة التوسل بالأخوين عروج وخير الدين⁽¹⁾ اللذين كانا يفرعان آنذاك الوجود المسيحي في عرض البحر

(1) أصل خير الدين باشا من أروام جزيرة (مدالي) إحدى جزائر الروم، وكان هو وأخ له يدعى (أوروج) يشتغلان بحرفة القرصنة ببحر الروم ثم أسلما ودخلا في خدمة السلطان محمد الحفصي صاحب تونس واستمرا في حرفتهما وهي أسر مراكب المسيحيين التجارية وأخذ كافة ما بها من البضائع وبيع ركايبها وملاحياها بصفة رقيق وفي ذات يوم أرسلوا الى السلطان سليم الأول إحدى المراكب المأسورة اظهارا لخضوعهما لسلطانه قبلها منهما ...

الأبيض المتوسط ما بين أعوام (1504 — 1512)، فاستجاب عروج بربروس لنداء وُجهاء الجزائر ودخلها دخول الفاتحين المعول عليهم لكن محاولاته المتكررة لرحزحة الاسبان عن كاهل قصبه الجزائر لم يتوج بما كان منتظرا مما حدا بالشيخ سليم الى التآمر عليه مع الاسبان الغزاة، لكن هذه الخيانة كلفته حياته في الأخير فدفعت بابنه يحيى بن سليم ليعلن ولاءه للغزاة الاسبان علانية حتى يثار لأبيه، فانطلق الى اسبانيا طالبا الدعم واللجوء السياسي فاستجابت الامبراطورية الى مطالبه وأوفدت معه قوات بحرية هائلة تحت قيادة دياقو دي فيرا (Diego de Vera) وذلك في 20 من شهر سبتمبر عام 1516 فنزلت هذه القوات بوادي الحراش قرب الجزائر وسجل في هذا اللقاء الكبير أول انتصار لصالح عروج بربروس واتباعه مما جعل نجمه يسطع وينفتح باب الرجاء والتوسل أمام الوفود التي قدمت اليه من تلمسان وتونس لتطلب مساعدته لاغاثتهم وانقاذهم من الهيمنة المسيحية الاسبانية فانطلق عروج بربروس رفقة القائد المعروف أحمد بلقاضي ليطيحا بالخبائز الشيخ حميد عابد حليف المسيحيين الاسبان، كما أطاحا بالملك الزياني حليف الغزاة أيضا مولاي حمو الذي فر ليلتحق بقاعدة وهران عام

... وأرسل لهما خلعة سنية وعشر سفن ليستعينا بها على غزو مراكب الافرنج فقويت شوكتها واثرت أعناقهما لاحتلال بعض سواحل بلاد الغرب باسم سلطان آل عثمان فاستولى خير الدين على ثغر (شرشال) باقليم الجزائر ثم عاد الى تونس ومنها أرسل الى السلطان سليم الأول الذي كان آنذاك بمصر رسولا يدعى (كرداوغلي) يؤكد لديه إخلاصه وولائه للسدة السلطانية العثمانية. أما أروج (عروج) فيعد أن استولى على مدينة الجزائر نفسها وهزم الجيوش الاسبانية التي أرسلها شارلكان لمساعدة الجزائريين على محاربة عروج فتح أيضا مدينة تلمسان وقتل بعدها بقليل في محاربة الاسبانيين لكن لم يتمكن هؤلاء من استخلاص تلمسان والجزائر بل حفظهماخير الدين (المعروف في كتب الافرنج باسم باربروس أي ذي اللحية الصهباء). وقتل أمير الجزائر وأرسل من قبله أحد أتباعه واسمه الحاج حسين الى السلطان سليم (وقد كان أتم فتح مصر) ليخبره بفتح الجزائر باسمه الشريف فقابله السلطان وعين خير الدين باشا بكليك على إقليم الجزائر وبذا صار هذا الاقليم ولاية عثمانية يدعى فيها في خطبة الجمعة باسم السلطان سليم وتضرب النقود باسمه».

محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية، الطبعة الثانية بمطبعة محمد أفندي، مصر، سبتمبر 1896 م، ص 95.

1517 فتمكن الغزاة من إعادة عرشه بعد شهرين وذلك بمساعدة حاكم
وهران المركيز دي كومارش (El Marquez de comeres) والقائد دياغو
نافارو دي قرطبة (Diego Navarro de Córdoba)، بفضل العوائق التي
جعلت الامدادات العسكرية الموفدة من قبل خير الدين لا تصل في وقتها
الى تلمسان لانشغالها في الطريق بقوات اسبانية كان يقودها مارتين
روخاس (Martín Rojas) على مقربة من قلعة بني راشد، ورغم هذا
الخلل تواصل القتال على أشده بين قوات عروج وقاعدة وهران وما
جاورها قرابة ستة أشهر كادت فيه الدوائر تكون لصالح عروج. لكن
مدد القائد مارتين دي أثوطي (Martín de Azote) المعتبر أنقذ الموقف
مرجحا كفة النصر لصالح الغزاة الاسبان فانهم أتباع عروج وسقط هو
شهيدا وذلك في عام 1518.

وبعد مرور ثلاثة أشهر عن هزيمة تلمسان تقدمت هجمة مسيحية
أخرى بنيت الاستيلاء على مدينة الجزائر بقيادة هُوَقُوْدِي مُونَكادا
(Hugo de Moncada) لكنها انتهت بهزيمة الغزاة أمام أسوار الجزائر وذلك
بفضل المقاومة الشعبية التي وفرها سكان الجزائر لمؤازرة قائدهم خير
الدين، وعلى إثر هذا الانتصار الكبير أعلن خير الدين في الجموع
خطابه التاريخي الذي صرح فيه عن رغبته في الانسحاب من مدينة
الجزائر والعودة الى القسطنطينية وتسليم مقاليد الأمور الى أصحاب
المدينة، لكن هذا النبأ المفاجيء لم يلق ترحيبا من سكان الجزائر بل
جابهوه بالرفض الجماعي واجمعوا كلمتهم على إعلان ملكا عليهم وكننازل
من خير الدين لرغبة الجميع قرن بقاءه بشرط أساسي مفاده أن تصبح
الجزائر تابعة للإيالة العثمانية وهو الشرط الذي استجابت له رغبة الأهالي
بدون أي تحفظ يذكر وبذلك تم تعيينه من قبل السلطان العثماني سليم
كأول حاكم للجزائر من قبل الباب العالي.

فسجل التاريخ بعد هذا الحدث سنوات من الاستقرار امتدت ما
بين (1519 — 1529) متوجة بالقضاء على الفتن الداخلية، وبتنصيب

خير الدين للديوان كهيئة عليا لادارة شؤون البلاد مكون من الأهالي الجزائريين.

ومنذ استقرار خير الدين كحاكم للجزائر من قبل الايالة العثمانية شرع في مواجهة الغزاة الاسبان برا وبحرا وذلك لتطهير محيط المدينة منهم لأن في حضورهم على مشارف الجزائر المطلّة على مراسيها عرقلة كبيرة لاستتباب الأمن فكان أول ما بادر به في عام 1529 هو حملته على هذا الخطر المحدق بالمدينة فتمكن على إثره من طردهم وفسح المجال نهائيا أمام بحارته والقرصنة الموالين لنفوذه بالتحرك الحرّ والسريع وقت الضرورة. وقد سجل تاريخيا على أعقاب حملة التطهير هذه أولى بدايات تحكّم القرصنة الجزائرية في عرض البحر الابيض المتوسط حتى بلغت شواطئ اسبانية مستجيبة لاغاثة المضطهدين من المورسكيين فكانت جولاتهم تعود بالعديد من الأسر الفارة من وطأة محاكم التفتيش لتعرف استقرارها في الجزائر وتصبح من العناصر الفعالة في محيطها الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والأمني.

ونتيجة لانتصارات خير الدين المسجّلة ما بين 1529 و1532 في عرض البحر ضد الغزاة الاسبان عينه السلطان العثماني أميرا لرياس البحر (Gran Almirante) ليكون على رأس الأسطول العثماني وكان ذلك عام 1533 وقلّد ابنه حسن آغا كأول باي للجزائر إكراما لخدمات والده، وفي العام نفسه تمكن خير الدين من الاستيلاء النهائي على مخلفات السلطنة الحفصية بتونس وذلك بالقضاء على آخر سلاطينها المدعو مولاي الحسن الذي قدم نفسه وملكه للاسبان فأصبح يدين لهم بالولاء والحزبية والتبعية فحلت عليه بذلك لعنة العامة والخاصة متهمة إياه بالخيانة العظمى للدين الأمر الذي أثار حفيظة الاسبان فأمر الامبراطور شارلكان (كارلوس الخامس) بتجهيز حملة لتأديب الاتراك العثمانيين قوامها أربع مائة قطعة بحرية محملة بثلاثين الف محارب تحت قيادة أندريا دوريا (Andrea Doria) وذلك في 20 من شهر جويلية فاسترجعت مدينة تونس وأعيد على رأسها شبه السلطان مولاي الحسن فزاد من

تنازلاته للغزاة أن أهدى لهم عربون ولاء مطلق جزيرة لأقولات لتصبح قاعدتهم.

وعلى إثر هذه الأحداث تراجع خير الدين بيوارجه ليحصن مدينته الجزائر أكثر ويستأنف نشاطه البحري على طول السواحل الاسبانية والايطالية ملحقا بها العديد من الخسائر والهلع ومعرقلا لتواصل طرقاتها التجارية فيما بينها وبين حلفائها ومستعمراتها الجديدة الأمريكية مما أرغم الامبراطور على محاولة وُلوج باب التفاوض مع خير الدين حتى تُتاح له فرصة مجابهة فرنسا لكن شروط خير الدين كانت في منتهى الصرامة والصراحة تعذر على الامبراطور الاستجابة لها لأنها تضع كشرط مبدئي لفتح التفاوض أن يتم إجلاء الاسبان الغزاة عن وهران الأمر الذي تعذر معه إيجاد صيغة أخرى لفتح باب التفاوض.

وفي هذه الظروف السياسية المتأزمة التي تعذرت فيها لغة الحوار، استفحل سلطان رياس البحر ليضربوا هذه المرة أقوى من سابقاتها سواحل الامبراطورية المسيحية الاسبانية ويُعرقلوا طرقاتها التجارية فقرر الامبراطور كمنخرج مشرف لصُولجانه أن يقود بنفسه حملة صليبية ضد «عشّ لصوص البحر»، الجزائر كما تسميها المصادر الأوروبية، قصد استئصال شأفة القراصنة، أو لصوص البحر كما يسمونهم(2). فأختار الامبراطور عام 1541 لغزو مدينة الجزائر مغتتا فرصة غياب خير الدين بالقسطنطينية، فدهام بأعتى أسطول عرفته المسيحية آنذاك لكن المفاجأة كانت مخبأة له وراء حصون الجزائر التي ريض سكانها وراء قيادة حسن آغا فكانت هزيمة ما بعدها هزيمة لحقت بالامبراطور حامي جَمي المسيحية وظهرت بعد هذا الحدث التاريخي مدينة الجزائر بمظهر المدينة

(2) تطلق المصادر الأوروبية على الموالين لبحارتها انذاك مصطلح (Corsarios) أي القرصان وتطلق على الجزائريين مصطلح (Piratas) أي لصوص البحر والفرق بين المصطلحين أن الأول يكون نشاطهم مشفوعا بشرعية البلد الذي ينتمون اليه في حين الثاني، هم لصوص لا ابتغاء لهم وقد يسطون حتى على البلاد التي قد ينتمون اليها. لذا يطلق مصطلح (Pirata) على الجزائريين من قبل المؤرخين الأوروبيين للتحقير من قيمته التاريخية.

التي «لا تُعزَى» أو لا تقهر أو تقتحم غنوة (Inconquistada). فلفتت انظار العالم وتحولت إلى إحدى القواعد العظمى التي يُحسبُ لها ألف حساب في حوض البحر الأبيض المتوسط. وقد دفع هذا الانتصار العظيم بالبابي حسن آغا إلى الوقوف أمام الاسبان ثانية بمدينة وهران قصد إجلائهم عنها، لكن محاولة 1542 لم يكتب لها النجاح نظرا للتحصينات الكبيرة التي تتمتع بها هذه المدينة البحرية وكنتيجة للوقوف الذي أظهره الاسبان في هذه المناسبة اندفع حاكم وهران ليشن حملات متوالية بهدف التوسع فداهم تلمسان وخلع سلطانها مولاي أحمد حليف الأتراك العثمانيين واستخلفه بأخيه مولاي عبد الله الذي ادخروه بوهران كلاجيء سياسي فوق وقع معهم معاهدة الولاة عام 1543 الأمر الذي جرّ عليه نقمة العامة والخاصة واعتبروا فعلته وضمّة عارٍ في جبين شرف الأمة الاسلامية، لكن هذا الولاة لم يدم طويلا لأن حسن آغا أعاد الكرة على تلمسان عام 1550 وتمكن من انقاذها نهائيا من يد الغزاة الاسبان.

لكن حاكم وهران نجده يحاول تعويض ما ضاع منه فيولي وجهه شطر مستغانم لتأديب حاكمها حمودة بن عودة حليف الأتراك العثمانيين لكنه يعود بخيبة أمل أودت بحياة ابنه وسقوط معظم قواته في معركة مزگران الشهيرة التي اندحرت امام قوات البابي حسن آغا وذلك في عام 1545.

وبعد هذا الانتصار تقدمت القوات الجزائرية لتطهير سواحل البلاد الشرقية فتمكنت من طرد الغزاة الاسبان، من بجاية وذلك عام 1556 فترك هذا الحدث ارتياحا كبيرا في الأوساط الاسلامية، وفتح بذلك باب من بوابات النجاة أمام المورسكيين الفارين من الاضطهاد. فكان لحضورهم أثره الفعال في تنشيط الحياة الاجتماعية والاقتصادية للبلاد.

وفي العام نفسه خرج حسن القرصان لمهاجمة وهران بثلاثين قطعة بحرية وأربعة آلاف تركي مُدعّمين بستة آلاف من الأهالي المتطوعين ومدعّمين كذلك بالأسطول العثماني بقيادة علي البرتغالي، لكن أوامر

السلطان القاضية بتحويل وجهة الأسطول شطر جزر مُور حالت دون ترجيح كفة الانتصار فرفع الحصار على مدينة وهران بعد ستة أشهر متتالية دون نتيجة وهو ما شجع حاكم وهران كعادته على إعادة الكرة الى مدينة مستغانم عام 1558 لكن قبل وصوله الى المدينة تجددت له واقعة مزغران فكلفته حياته واندحار قواته.

وفي عام 1563 هاجم الباي حسن باشا قاعدة المرسى الكبير برا وبحرا لكنه مُني بهزيمة على يد قائد القاعدة آنذاك مارتين دي كوردوبا (Martín de Córdoba) المدعم بالأسطول الملكي بقيادة فرانسكو دي مندونا (Francisco de Mendoza). أما ما بين 1563 أو 1571 فقد سجل التاريخ أعظم الأحداث الجسام في تاريخ التصادم بين الروح الصليبية الحاقدة والمد الاسلامي المسجل على يد الأتراك العثمانيين ففي عهد كل من حسن باشا وعلج علي سجل الحضور المكثف للقراصنة الجزائرية في عرض البحر الأبيض المتوسط أعنف هجماته، كما أحدثت أخبار المقاومة المورسكية المسلحة بجمال البشارات (1568 — 1570) أعظم التضحيات، وسجل كذلك التاريخ حدث انهزام الأسطول العثماني أمام التحالف الصليبي الكبير في معركة (Lepante) الفاصلة وذلك عام 1571. فكل هذه الأحداث أضرت من سعي الحقد الصليبي ضد الاسلام، وفي المقابل جعلت من الجزائر التي كثيرا ما ينعتها الأوروبيون «بعش القراصنة» دار الجهاد الاسلامي التي تُعَلّق عليها آمال المسلمين لذا نرى نزوة الملك فيليب الثاني المنتصر على العثمانيين تتجسد في هجومه البربري على تونس بقيادة أخيه حُوان ذي أوستريا (Juan de Austria) بطل معركة (Lepante) فدهمها بقواته التي عاثت في مدينة تونس فسادا وأعاد سلطانها المهزوم الى عرشه وذلك في شهر أكتوبر عام 1573، لكن الحظ لم يسعفه طويلا اذ أن الباي علج لم يتردد في مهاجمة تونس والقضاء على أثر الحفصيين نهائيا، وعلى الوجود الاسباني في عام 1574 فطهر منهم أرض تونس وما والاها.

لكن بعد بدايات عام 1575 انتهج الملك الاسباني فيليب الثاني

نهجا جديدا في سياسته الخارجية تجاه الباب العالي فدخل في مفاوضات الصلح قصد تفرغه لمشاغبه الأوروبية وبخاصة قضايا البروتستنتيين في شمال أوروبا فتمكن عام 1580 من تحقيق معاهدة هدنة، لكنها لم تُرَخ كاهل مملكته من جراء قلق القرصنة الجزائرين.

وعلى اثر ظهور خلفه فيليب الثالث (1598 — 1621) الذي أوقد نار الفتنة الصليبية من جديد بسياسته الممثلة في اقدمه على اصدار قرار طرد المورسكيين من كامل اسبانيا ما بين (1609 — 1616) فانه أغلق كل أبواب التقارب مع جيرانه بالمغرب العربي الاسلامي، بل شرع في تنفيذ سياسته التوسعية بمداهمته للجزائر في العديد من المرات فغزا منطقة ازخرون عام 1603 ومنطقة جيحل عام 1605 بعد أن تمكن من ابرام تحالف مع البربري المتمرد المدعو «ملك كوكو» حاكم منطقة القبائل الكبرى، لكن ردّ فعل القرصنة الجزائرية كان مواكبا مع الأحداث فأثقلوا كاهل المملكة المسيحية بغاراتهم المتعددة على سواحلها مما أفقد الاسبان وسيلة أمن الطرقات التجارية.

أما منتصف القرن السابع عشر فقد سجلت فيه أحداث لم تكن بذات القيمة المعتبرة وخاصة من الجانب الاسباني الذي توجهت عناية حُكام قاعدته وهران الى البحث عن أسلوب جديد للتوسع على حساب الأمن الداخلي للمقاطعات التابعة لباي الجزائر أو باي مُعسكر، فسجلوا عدة غارات في عمق التراب الوهراني تجاه الجنوب والغرب بحثا عن المغنم، وفي محاولة يائسة عام 1686 بغرض الاستيلاء على معسكر لكن دون جدوى.

أما الجانب الجزائري فان سياسته العليا للبلاد ارتأت ان تولي عناية خاصة للقاعدتين الكبيرتين وهران والمرسى الكبير ومحاولة زحزحة النفوذ الاسباني عن كاهلهما فكان هدف باي الجزائر هذه المرة هو استئصال هذا الوجود اللاشعري مُغتتا فرصة الخلافات السياسية التي تعيشها المملكة الاسبانية، وكذلك سقوط كل من جبل طارق وجزيرة مينورقة في يد بريطانيا. ففي خضم هذه الأحداث انطلق باي معسكر محمد بوشلاغم

في هجومه الكبير على وهران عام 1707 فحاصرها مدة سنة انتهت بتقهقر حاكم وهران آنذاك دون ملتشور دي أبيليانيدا (Don Melchor De Avellaneda) الى المرسى الكبير وذلك في 4 من شهر نوفمبر من السنة نفسها فاسحا المجال بتراجعه لقوات الباي كي تدخل وهران لأول مرة بعد قرنين، منتصرة، لكن أنظار كل من الباي حسن آغا وحسن بوشلاغم اتجهتا الى المرسى الكبير فوحدا جهودهما وطوقاها مدة ستة أشهر الى غاية 7 أفريل عام 1708 اليوم الذي أُلقي فيه القبض على قائد الحاميات الاسبانية، وبهذا الانتصار التاريخي الذي جاء بعد 199 سنة من الاستعمار الاسباني لوهران والمرسى الكبير تم تطهير سواحل المغرب الاسلامي وأعلن هذا الخبر في أرجاء العالم الاسلامي ليُدوي المنابر والمآذن ومجالس العلم.

أما في اسبانيا فان هذا الخبر المُرعب نجده يُهز أرجاء الجزيرة ويسجل استياء كبيرا في الأوساط ممّا سبب موجة من الاحتجاج ضد الحكومة ولم يكن الرأي العام الدولي بمعزل عما يدور أو أقل رحمة في تشفيه من انهيار الكرامة الاسبانية بنفوذها العسكري وفتوحاتها الصليبية الأمر الذي حفّز الملك فيليب الخامس بعد تحكّمه في الوضع من اعلان خطة جديدة لاسترداد وهران مهما كلف الثمن غاليا، ومن مدينة اشبيلية في 7 من شهر جوان 1732 تُلي بيان خطته على مسامع كافة أوروبا. وفي 15 من الشهر ذاته تحرك أسطولُه الذي ضم ثلاثين ألف محارب تحت قيادته فنزل بسواحل عين الترك قرب وهران وفي اليوم نفسه تمكن من استرجاع وهران والمرسى الكبير وبذلك حافظت المملكة الاسبانية على ماء وجهها مسترجعة هيبتها، لكن النبأ كان شديد الوقع على الجزائر حتى تسبب في اقالة الداي كورد علي (1724 — 1732) وجاءت محاولة كل من باي معسكر والداي الجديد ابراهيم في عام 1733 لاسترجاع القاعدتين لكن جهودهما باءت بالفشل، وعلى اثر هذه المستجدات من الأحداث يدخل النفوذ البحري الجزائري عهد التقهقر، ولا نراه يعرف الانتعاش إلا على عهد الداي الشهير (الأعرج) محمد بن عثمان باشا

الذي سيحكم الجزائر من 1766 إلى غاية 1791 تاريخ استرجاع
وهران... ولعل عهد عثمان باشا يعدّ أوج ازدهار السيادة الجزائرية التي
فرضت وجودها العسكري الذي مكّنها من ارضاخ اسبانيا الى
المفاوضات الطويلة والشاقة والتي كانت فيها المرسي الكبير وهران هما
رهان السلم الموعود. ونحن اذ نقف عند هذا الحدّ في هذه العجالة
التاريخية فلا لشيء سوى لأننا أتينا تقريبا على إبراز الوجه الصليبي الذي
كان دأبه اقناع العالم بشرعية الحرب المقدسة لمعاينة الكفرة ومطاردتهم
من أي أرض قد يحلون بها.

مراجع الفصل السادس

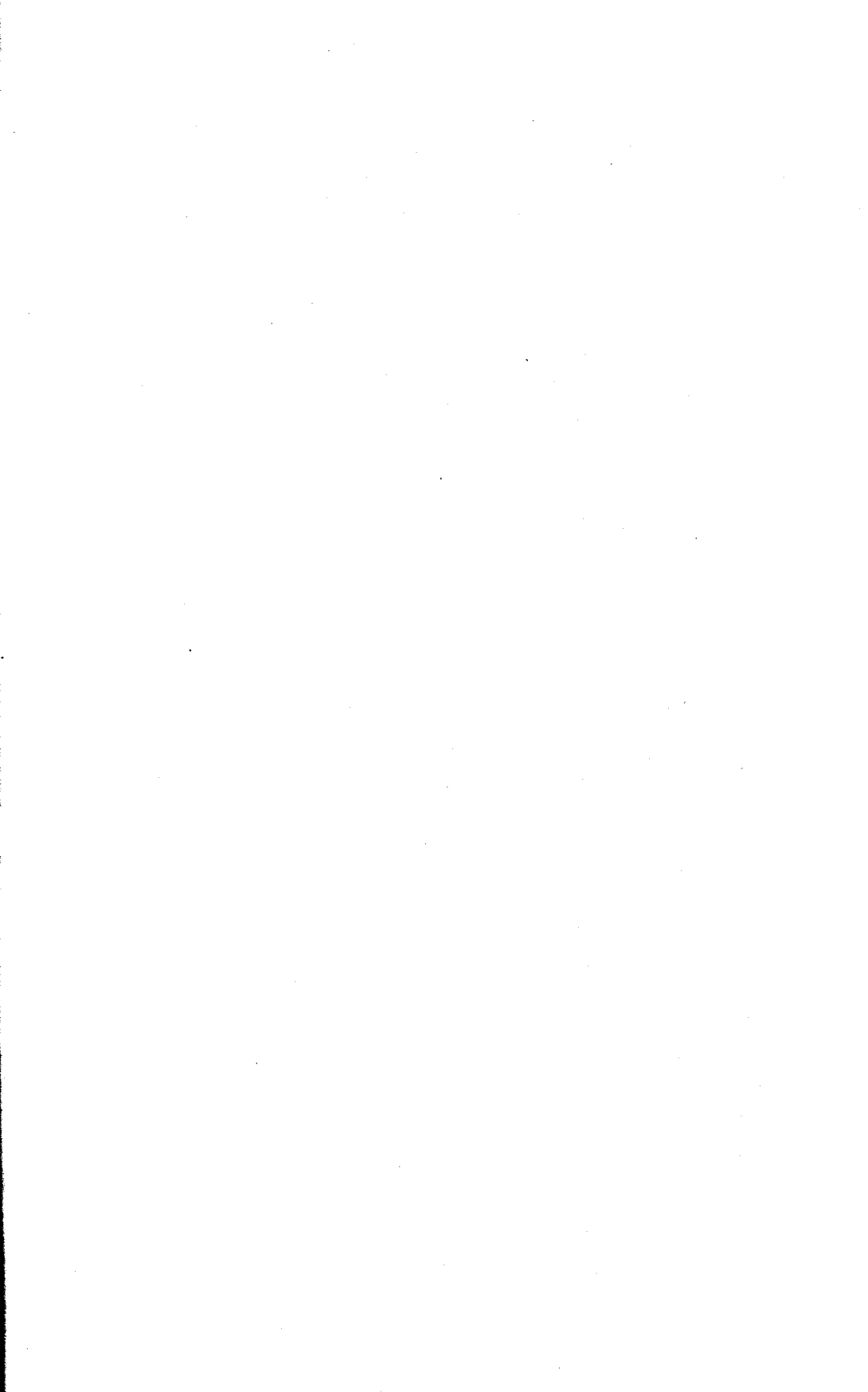
اعتمدت في تحضير هذا الفصل على مراجعة الكتب الآتية :

- 1 — Calindo y de Vera : **Historia de España respecto a sus posiciones en las costas de africa.** Madrid 1884
- 2 — Garcia Figueras Tomás : **Presencia de España en Berberia Central y oriental (Tremecén, Argel, Túnez y Tripoli),** Larrea, Madrid 1943.



— وبعض القراءات الأخرى

المهتدين



المراجع حسب ظهورها

- 1 — Dr. don Joaquín Vallvé : **Libertad y esclavitud en el Califato de Córdoba**. Ed. Actas de las II jornadas de la Cultura árabe e Islámica, I.H.A.C. Madrid 1980
- 2 — Pierre Guichard : **Al-Andalus. Estructura antropológica de una sociedad islámica en Occidente**, Barcelona 1976.
- 3 — Jacinto Bosch Vilá : **El elemento Humano Norte africano en la Historia de la España Musulmana (Separata de la Revista Cuadernos de la B.E. de Tetuán)**, nº 2, Noviembre 1964.
- 4 — ياقوت الحموي : معجم الأدياء. ج 2، ط 2، القاهرة 1938.
- 5 — **Una crónica anónima de 'Abd al-Rahmān III al-Nāsir**, editada por Lévi-Provençal y E. García Gómez - Madrid -Granada 1950.
- 6 — ابن حيان القرطبي : المقتبس، ج 5، تحقيق بيدرو شالميتا ود. محمود صبح، نشر المعهد الإسباني العربي، مدريد 1983.
- 7 — Dr. Pedro Chalmeta : **Precisiones acerca de 'Umar b. Haf-sūn**, Ed. Actas de las II jornadas de C.A. C.I. ed. I.H.A.C. Madrid 1980.
- 8 — أحمد مختار عبد الفتاح العبادي : الصقالية في اسبانيا، لحة عن أصلهم ونشأتهم وعلاقتهم بحركة الشهوية. نشر وزارة المعارف العمومية، المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد 1953.
- 9 — مؤلف مجهول : اخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بها بينهم. تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1981.
- 10 — ابن حزم الأندلسي : الرد على ابن النفركه اليهودي ورسائل أخرى. تحقيق د. احسان عباس — دار العروبة، القاهرة 1960.
- 11 — محمد المنوني : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين تطوان المغرب 1950.
- 12 — المقرئ : نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب... ج 6، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط 1، القاهرة 1949.

- 13 — د. اسعد حومد : محنة العرب في الأندلس. نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1980.
- 14 — سيمون حائك : صُبح البشكنسية أو الأندلس على عهد الحكم المستنصر والدولة العامرية. نشر مطابع الكريم الحديثة، بيروت 1976.
- 15 — Claudio Sanchez Albornoz : **La España Musulmana (según los autores islamistas y cristianos medievales)**, 2a ed., 2 tomo, Ed. Buenos Aires (Argentina) 1960.
- 16 — Pierre Vilar : **Histoire de l'Espagne**, Paris 1958.
- 17 — Juan Regla : **Estudios sobre los Moriscos**, Ed. Ariel Barcelona 1974.
- 18 — Boronat y Barrachina (Pascual) : **Los Moriscos Españoles y su expulsión**, Ed. Imprenta Francisco Vives y Mora. Valencia 1901.
- 19 — Julio Caro Baroja : **Los Moriscos del Reino de Granada**, 2a ed. ISTMO, Madrid 1976.
- 20 — Louis Cardaillac : **Le passage des Morisques en Languedoc**. Montpellier, 1970.
- 21 — Louis Cardaillac : **Morisques et Chrétiens; un affrontement polémique (1492 - 1640)**, pub. C.N.R.S., Paris 1977.
- 22 — María del Carmen Pescador Del Hoyo : «Cómo fue de verdad la toma de Granada» a la luz de un documento inédito. Revista Al-Andalus n° 20. 1955.
- 23 — Rachel Arié : **Algumas reflexiones sobre el Reino Nasrī de Granada en el siglo XV**, B.A.E.O. XXI. 1985.
- 24 — Jaime Bleda : **Crónica de los Moros de España**, ed. Felipe Mey. Valencia 1618.
- 25 — Gaspar Aguilar : **Expulsion de los Moros de España por S.C.R. Magestad del Rey Don Phelipe Tercero (III) Nuestro Señor**. Valencia en Casa de Pedro Patricio Mey junto a San Martin 1610.
- 26 — Juan Méndez de Vasconcelos : **Liga deshecha por la expulsion de los Moriscos de los reynos de España**, Madrid, por Alonso Martin año 1612 a Costa de Domingo González, mercader de libros.
- 27 — Vicente Pérez de Culla : **Expulsion de los Moriscos rebeldes de la sierra y Muela de Cortes por Siméon Zapata Valenciano del Colegio de la Campaña de Hermanos de Gandía**, Valencia, por Juan Bautista Marcal, junto a San Martin, M. DC. XXXV.
- 28 — Henri Lapeyre : **Géographie de l'Espagne Morisque**, Paris, S.E.V.P.E.N., 1955.
- 29 — Antonio Dominguez Ortiz : **Felipe II y los Moriscos** col. M.E.A. Granada 1959.
- 30 — مؤلف مجهول : أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر، تحقيق الألكاني ماركوس — حوزيف مولير، ميونيخ 1863.

- 31 — Damian Fonseca : **Justa expulsion de los Moriscos de España con la instrucción apostasia y trayción dellos y respuesta a las dudas que se ofrecieron acerca desta materia, Roma 1612.**
- 32 — Álvaro Galmes de Fuentes : **El Libro de las Batallas**, Tomo I. ed. Gredos, Madrid 1975.
- 33 — Miguel Asín Palacios : **El Origen arabe de la novela aljamiada «El bano de Zariab»** en homenaje a R. Menendez Pidal, Vol. I. 1924.
- 34 — Teresa Losada Campo : **Estudios sobre Coranes aljamiados.** ed. Universidad de Barcelona 1977.
- 35 — Harvey L.P. : **El Mancebo de Arévalo y la literatura aljamiada, actas del coloquio internacional sobre la literature aljamiada**, Morisca, Oviedo, 1972, Ed. Gredos. Madrid 1978.
- 36 — لسان الدين بن الخطيب : **الاحاطة في أخبار غرناطة ج3**، تحقيق عبد الله عنان، القاهرة 1976.
- 37 — Miguel de Cervantes : **Don Quijote de la Mancha**, Tomo II.



الفهرس

- 5 الاهداء
7 تمهيد : التركيبة البشرية للمجتمع الأندلسي في ظل التسامح

الفصل الأول

- 25 — المورسكيون بين الذاكرة والواقع
31 — محاولات التدجين الفاشلة
34 — حظر اللغة العربية والمؤلفات المورسكية من قبل محاكم التفتيش
40 — متابعات محاكم التفتيش للمخالفين
43 — إمعان السلطات الكنسية في مصادرة اللغة العربية

الفصل الثاني

- 49 — مأساة المورسكيين على وتر الشعر الملحمي الاسباني
56 — الملاحم الشعرية كشاهد عيان على مأساة الترحيل
63 — مجريات أحداث الترحيل الاجباري حسب رصد الشعر الملحمي لها

الفصل الثالث

- 73 — انتفاضة المورسكيين بجبال بلنسية حسب رصد الشعر الملحمي
لضرواتها ونتائجها

- 75 انتفاضة المورسكيين بجبال موغلا دي كورتيس
78 انتفاضة المورسكيين بجبل لاغوار

الفصل الرابع

- 89 نهاية مأساة المورسكيين في باقي المقاطعات الأخرى
94 مجريات طرد المورسكيين من مقاطعتي كاطالونيا وأراعون

الفصل الخامس :

- 103 بعض الملامح من الثقافة المورسكية

الفصل السادس

- 129 بعض مظاهر الانتقام الصليبي من حماة المورسكيين بالجزائر
على عهد الأتراك العثمانيين

D P
104
H36
1989
MAIN

UC-NRLF



B 4 999 835

الدكتور عبد الله حمادي
أستاذ مبرز بجامعة قسنطينة

نشر مجموعة من البحوث الأدبية في الأدب الأندلسي والمغربي
والأسباني واللاتينو أمريكي. كما ترجم مجموعة من الأعمال
عالميين أمثال بابلو نيرودا، وغارسيا ماركيز وغارسيا لوركا.
وله نشاطات واسعة في مجال الصحافة الجزائرية.

صدر للمؤلف

- الهجرة الى مدن الجنوب (ديوان شعر). نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع — الجزائر سنة 1981
- مخزب العشق يا ليلى (ديوان شعر ومقدمة). مطبعة البعث — قسنطينة — الجزائر سنة 1982.
- غابرييل غارسيا ماركيز... وائد الواقعة السحرية. المؤسسة الوطنية للكتاب — الجزائر سنة 1983.
- قصائد غجبية (ديوان شعر) المؤسسة الوطنية للكتاب — الجزائر سنة 1983.
- اقترابات من الشاعر الشيلي الأكبر... بابلو نيرودا — الدار التونسية للنشر 1985 وطبعة مشتركة ما بين الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب — الجزائر 1985
- مدخل الى الشعر الاسباني المعاصر (دراسات) — المؤسسة الوطنية للكتاب — الجزائر سنة 1985
- دراسات في الأدب المغربي القديم
- رباعيات آخر الليل (شعر)